موسوعة العقيدة والأديان

علاء الحصري

١٤

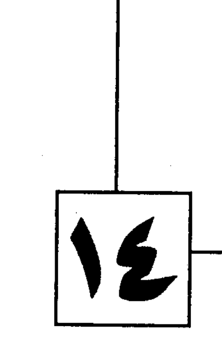
العقيدة الدينية

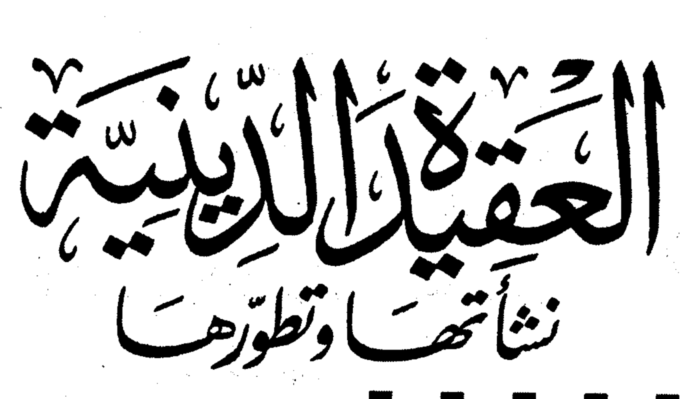
نشأتها وتطورها

د. فرج الله عبد الباري
أستاذ العقيدة والأديان



موسوعة العقيدة والأديان





العقائد الدينية

نشأتها وتطورها

د. فرج الله عبد البارى
أستاذ العقيدة والأديان



دار الآفاق العربية

نشـــر - توزيـــع - طـــباعة
٥٥ - ش محمـــود طلعت - من ش الطـــيران
مدينـــة نصـــر - القـــاهـــرة
تليفون : ٢٦١٧٢٣٩ - تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤
E-mail : daralafk@yahoo.com

اسم الكتـاب : العقيدة الدينية نشأتها وتطورها
اسم المؤلـف : د. فرج الله عبد البارى

رقـم الإيـداع : ٢٠٠٥/١٥٨٣٦
الترقيم الدولى : 0 - 121 - 344 - 977

الطبعـة الأولـى
٢٠٠٦م



الإهـــداء

إلى والدتى ووالدى. عليهما رحمة الله

إلى رمز العفة والطهر صاحبة البذل الكبير والعطاء الوفير زوجتى الكريمة

إلى أبنائى: حور ويحيى وجنات ومحمد أهدى إليهم هذا العمل

سائلا الله أن يبارك فيهم جميعا

أ د. فرج الله عبد البارى أبو عطا الله

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد.

فهذا بحث عن نشأة الدين والتدين. بين التوحيد والتطور. وكما يظهر من العنوان فإن الموضوع حيوى للإنسان بوجه عام، والمسلم المعاصر بوجه خاص . خاصة وأن هناك تيارات متعددة تتجاذب الموضوع إنْ بالحق أو بالباطل.

وواجب المشتغلين بالفكر الإسلامى من المتخصصين أن يُدلوا بدلوهم فى الموضوعات التى يتناولها نفر من غير المتخصصين فى العلم الدينى خاصة الذين يتابعون الغربيين فى وجهات نظرهم.

ومن ثمَّ وجدت لزاماً علىَّ كأحد المنتمين إلى الإسلام، والمنتسبين إلى الجامع الأزهر العريق، والمعروف بدفاعه عن قضايا الدين بوسطيته المشهود لها. أن أتناول موضوع نشأة الدين وبواعث التدين.

مبيناً الحق الذى أعتقده مدللاً عليه من خلال نصوص الكتاب والسنة مستأنساً بفهوم العلماء حولهما

ما معنى كلمة الدين فى معاجم اللغة العربية ؟ وما هى المعانى التى تدل عليها تلك الكلمة التى تمسُّ شغاف القلوب حين تذكر . يموت بسببها من يموت ويحيا من أجلها من يحيا . إنْ بالحق أو بالباطل؟

هذا ما يجيب عليه هذا البحث. فى المبحث الأول بمسائله الثلاثة — التى تتناول معنى الدين.فى اللغة وماذا قال المستشرقون عن كلمة الدين الواردة فى اللغة العربية؟ وما هو الجواب عما أثاروه؟ هذا ما تتناوله المسألة الثانية من المبحث الأول . أما المسألة الثالثة . فكانت عن معنى الدين فى اصطلاح الفكر الإسلامى.

أما المبحث الثانى: فكان عن الدين وإطلاقاته فى القرآن والسنة واشتمل على عدة مسائل منها الدين فى القرآن الكريم - بمعناه العام الذى يشمل الحق والباطل - فمن دلالته على الحق وروده بمعنى الإسلام أى استسلام المرء لله وتوحيده وهذا الإسلام هو ما وصف الله به الأنبياء فى القرآن الكريم ومن دلالته على الباطل . قوله تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ أما الدين بمعناه الخاص فيطلق على الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم والذى لا يقبل الله ديناً سواه.

أما المسألة الثالثة: فكانت عن الدين وإطلاقاته فى السنة النبوية، وقد أوضحت أن لفظ الدين ورد بمعناه العام الذى يعنى الدين الباطل كدين اليهود والنصارى وورد أيضاً بمعناه الخاص الذى يعنى الدين الحق وهو الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأوردت نماذج من المعنيين وإطلاقاتهما فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما المبحث الثالث : فكان عن إبطال زعم من ادعى نجاة غير المسلم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم. وقد ناقشت فيه بعض الآراء التى زعم أصحابها أن المسلم من أخلص وجهه لله من أى ملة كان ، وفى أى زمان وجُد بدون تقييد ذلك بمن كان قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. أما بعد بعثته فلا يقبل من أحدٍ صرفاً ولا عدلاً إذا بلغته دعوة الإسلام ولم يؤمن بالله ولم يصدق بمحمد ﷺ وحشدت الأدلة على ذلك.

أما المبحث الرابع فعقدته للحديث عن الملة فى اللغة والاصطلاح، وورودها فى القرآن الكريم والسنة النبوية.

أما المبحث الخامس: فكان عن النحلة فى اللغة، والاصطلاح، ودلالة هذه الكلمة وعلاقتها بمجال العقيدة وعلاقتها بمجال العقيدة والتدين.

أما المبحث السادس: فكان عن الدين فى اصطلاح الغربيين . عرضت فيه جملة من تعريفاتهم للدين وبينت قصور التعريفات عن الوفاء بالمدلول الحقيقى لكلمة الدين ثم بينتُ العناصر الضرورية اللازمة للدين، والتى غابت عن تعريفات الغربيين

ورجحتُ ما ذهب إليه العلامة الدكتور " دراز" وانتصرت للتعريف الذى أورده.. وأنهيت بذلك الفصل الأول من الدراسة.

أما الفصل الثانى : فجاء بعنوان مصدر الدين وبواعث التدين عند الغربيين وقد اشتمل على عدة مباحث :

المبحث الأول : دعوى أن الإنسان هو مصدر الدين.

فى هذا المبحث عرضت وجهة نظر بعض الغربيين الذين ذهبوا إلى أن الإنسانية قد عاشت قروناً طويلة فى حياة مادية خالصة قبل أن تفكر فى مسائل الدين ، وبينت أن هذا الاتجاه سيطر على الفكر الأوربى فترة من الزمن ، ولا تزال بقاياه موجودة فى هذا العصر. وقد أوردت الأسباب التى جعلت البعض يذهب إلى هذا الرأى. وذكرت منها : القدوة غير الحسنة ، والانحلال الخلقى عند رجال الكنيسة. ومصادرة الفكر من قبل رجال الدين ، وسيطرة الكنيسة واضطهادها للمفكرين. هذه الأمور وغيرها جعلت الكثير ينفر من الدين ويهاجمه. وكان خطأ هؤلاء أنهم عمموا أحكامهم فلم يقصروها على الدين الذى عذبوا باسمه . ولكن تعدوه إلى جميع الأديان وعلى رأسها الإسلام.

أما المبحث الثانى : فكان عن البواعث على التدين عند من يزعم بأن الإنسان مصدر الدين.

عرضتُ فيه أهم النظريات التى تفسر الباعث على التدين . فذكرت منها المذهب الطبيعى ، والمذهب الحيوى ، ومذهب الطوطم وأوردت بعض الاتجاهات الثانوية فى الباعث على التدين والتى منها الشعور بالحب ، والاتجاه النفسى كباعث على التدين.

ثم عقبت بتعقيب رصدت فيه انتشار هذه الأفكار الأمر الذى جعل بعض المفكرين فى العالم الإسلامى يتابعون الغربيين فى نظرتهم إلى مصدر الدين والبواعث عليه.

ذكرت من هؤلاء الأستاذ " سليمان مظهر " فى كتابه " قصة الديانات " والأستاذ " عباس العقاد " فى كتابه " الله كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية " ومما لفت نظرى

واسترعى انتباهى إقراره بما ذهب إليه الغربيون من أن الإنسان بدأ وثنياً معدداً وانتهى بتوحيد الآلهة فى إله واحد. وإذا بالأستاذ ، بعد أن يعدد الأدوار التى مرت بها الأمم فى العقيدة والتى تمثلت عنده فى دور التعدد، ودور التمييز والترجيح، ودور الوحدانية . إذا به يقول : " وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ سورة الأنعام الآيات ٧٦ - ٧٩)

وبهذا التعقيب أنهيت المبحث الأول من الفصل الثانى.

أما المبحث الثانى: فقد خصصته لتقويم الاتجاهات الواردة فى المبحث الأول . والتى يزعم أصحابها أن الإنسان هو مصدر الدين، وأن البواعث على التدين مظاهر أرضية أو سماوية بعيدة عن الوحى والغيب .

فنقضت ما ذهب إليه أصحاب المذهب الطبيعى. وأيضاً ما ذهب إليه أنصار المذهب الحيوى. وتوقفت قليلاً عند أصحاب مذهب الطوطم خاصة زعيمهم "دوركايم" فيما ذهب إليه.

ثم تحدثت عن نقض القول بالتطور فى خلق الإنسان والكائنات . والذى دفعنى إلى إيراد هذا النقض ما ظهر لى أثناء عرض وجهة نظر الغربيين من سيطرة فكرة القول بالتطور بمعناه " البيولوجى " عليهم جميعاً حتى بدا لى أن القول بالتطور هو القاسم المشترك بينهم على اختلاف أزمنتهم، وأمكنتهم، ولغاتهم. وقد أوردت خلاصة بحوث العلماء التى انتهت إلى زيف القول بالتطور فى خلق الكائنات والإنسان من الناحيتين العلمية والدينية.

وبعد أن أنهيت تفنيد القول بالتطور " البيولوجى " يممتُ وجهى شطر الذين يقولون بالتطور فى العقيدة. فبينت الخطأ المنهجى الذى وقعوا فيه ، وأوضحت أن دراساتهم تقوم على الظن والتخمين. لا على اليقين . وتساءلت ما هى الأدوات التى استخدمها هؤلاء لدراسة معتقدات الإنسان منذ مليونين ونصف المليون عام.. ؟ هذا من ناحية . ثم من جهة أخرى إن القول بقياس التطور فى العقائد على التطور فى الصناعات حجة على التطوريين لا لهم . ثم أوضحت أن القول بالتطور فى العقيدة

بضاعة أوربية استنفدت أغراضها وانتهت صلاحيتها بعد أن جاء الإسلام، وقرر القرآن أن الناس منذ خلقوا كانوا على التوحيد وأن الرسل كانت توقظ فطر الخلق لترشيدهم إلى توحيد الله وألوهيته..

أما ما يتعلق بما ذهب إليه الأستاذ " العقاد " (يغفر الله له) فقد تناولتُ الآيات التى استدل بها على التطور ، وأوردتُ ما ذكره ثلةٌ ، من المفسرين وعلماء العقيدة حولها وتابعتهم فيما ذهبوا إليه من أن هذه الآيات كانت على سبيل المجادلة والمحاجة لقومه بدليل قوله تعالى فى بداية الآيات (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) وكما يقول " الرازى: "ومن كان منصبه فى الدين كذلك وعلمه بالله كذلك فكيف يليق أن يعتقد بإلهية الكواكب "، ومما يدل أيضاً على أنه فى هذه الآيات كان مجادلاً قومه. قوله تعالى فى نهاية الآيات ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنعام الآية ٨٣

وقد ناقشت المفسرين الذين ذهبوا إلى خلاف ذلك – ثم بينتُ خطورة قول الأستاذ " العقاد " ومن قال بقوله ـ لأن القول بالتطور فى الدين يؤدى منطقياً إلى أن الدين من صنع الإنسان وأن فكرة " الله " ليست سوى مثل أعلى متغير وضعه الناس لأنفسهم، وأيضاً فإن القول بالتطور فى العقيدة فيه تكذيب للنصوص الدينية التى تقرر سمو التصور الدينى عن سيدنا " آدم " عليه السلام. وأنهيت بالرد على الأستاذ " العقاد " المبحث الثانى من الفصل الثانى.

أما الفصل الثالث : فكان عن مصدر الدين ، وبواعث التدين عند جمهور المسلمين. وقد اشتمل هذا الفصل على عدة مباحث :

المبحث الأول: عقدته للحديث عن القرآن الكريم وحديثه عن مصدر الدين.. وقد أوردت فى هذا المبحث ما ذكره الله عز وجل عن قصة " آدم " عليه السلام إن فى السماء أو فى الأرض والتى تدل على أن مصدر الدين هو الله، وأن الإنسان الأول نزل بالوحى، والهداية، والتوحيد ، وأن الباعث على التدين الفطرة ودعوة الرسل إلى توحيد الله وعبادته وكذلك العقل السليم.

أما المبحث الثانى : فكان عن البواعث على التدين عند المسلمين ـ **أوضحت فى** هذا المبحث أن الفطرة ، والميثاق الذى أخذه الله على بنى آدم، وإرسال الرسل

لتذكير الخلق ودعوتهم إلى توحيد الله . كل هذه الأسباب وغيرها كانت من البواعث على التدين، وأوضحت أن الأصل هو الوحدانية، وأن الشرك هو الطارئ على البشرية واستعرضت قوله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (البقرة الآية ٢١٣) وما دار حولها. من دلالتها على الاجتماع على التوحيد وهو مذهب جمهور المسلمين فى تفسير الآية. وما ذهب إليه البعض من أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر و الضلال. عرضت ما ذهب إليه كل فريق ورجحت ما ذهب إليه الجمهور من أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد وحشدت الأدلة على ذلك وأنهيت بذلك الفصل الثالث . من الدراسة.

أما الفصل الرابع : فجاء تحت عنوان العلم التجريبى والدين وقد اشتمل على مبحثين وعدة مسائل

فى المبحث الأول: مهدت بتمهيد أوضحت فيه سيادة الاتجاه المادى المستند على الحس والتجربة ثم عرضت تعريف المذهب الوضعى، وقانون الحالات الثلاث الذى ذكر فيه " أوجست كونت " المراحل التى مرت بها البشرية ابتداءً بالمرحلة اللاهوتية ، وتوسطاً بالمرحلة الميتافيزيقية، وانتهاءً بالمرحلة الوضعية التى يقرر فيها " كونت " ضرورة الاستغناء عن الدين والاكتفاء بالعلم التجريبى وأن جميع المشكلات لا تحل بالدين، ولكن بالعلم.

ثم أوردت الأسباب التى أدت إلى سيادة المذهب الوضعى وانتشاره فى أوربا وكيف تسرب هذا المذهب إلى العالم الإسلامى وذكرت بعض المفكرين الذين تبنوه فترة ثم تراجعوا عنه أمثال " إسماعيل مظهر " والدكتور " زكى نجيب محمود " (يغفر الله لهما) .

أما المبحث الثانى : فعقدته لتقويم المذهب الوضعى. ودار الحديث فيه عن عدم اتباع " كونت " للمنهج العلمى فيما ذهب إليه بالرغم من ادعائه تمثل العلم فى جميع الأمور.

وبينت أن " كونت " نفسه قد هدم المذهب الوضعى الذى دعا إليه حين اخترع ديانة الإنسانية وكيف عبد " كونت " صنماً تمثل فى إمرأة تدعى " كلوتيد دى فو " ؟ وأوردت قوله تعالى ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ النساء الآية ١١٧

وأوضحت أن " كونت " الذى دعا إلى ترك العقيدة الدينية. صنع له ديناً جمع فيه خسة الفكر البشرى فى اتباع الهوى، والكفر بالله العظيم .

ثم بينت فى معرض الرد على " كونت " كيف أن العلم التجريبى الذى دعى إليه قائم على الغيبيات مستشهداً فى هذا الصدد بأقوال أساطين العلم التجريبى الحديث، والمعاصر. وأن العلماء التجريبيين يصرحون بأنهم مضطرون لقبول أشياء كثيرة فى المجال العلمى بلا مناقشة.

ثم تحدثت عن إخفاق العلم التجريبى فى حل مشكلات الإنسان المعاصر . وأن العلم الذى دعا إليه " كونت " بعيداً عن الدين هو المسئول عن الإبادة الجماعية والفقر والجوع فى العالم الآن.

ثم أوردت نماذج من انتشار السحر والتنجيم والشعوذة فى العالم الغربى. الذى اتخذ العلم إلهاً عبده من دون الله . وأوضحت أن العلم عجز عن إشباع الجانب الروحى الأمر الذى أدى إلى انتشار هذه الخرافات فى أرقى المجتمعات الأوربية من الناحية المادية.

ثم كانت الخاتمة التى اشتملت على تعقيبين :

التعقيب الأول : كان عن علاقة الإسلام بالعلم . أوضحت فيه شمولية الإسلام واهتمامه بكافة أمور الإنسان الدنيوية منها التى تحقق خلافته عن الله فى الأرض واستكشاف سنن الله فى كونه، والأخروية التى تحقق له الأمان فى دار البقاء وبينت أن المسلمين الأوائل اكتشفوا سنن الله فى أرضه وسمائه فانطلقوا يبحثون وينقبون ويشتغلون بالعلوم التجريبية من فلك وطب ورياضيات وكانوا يعتبرون أن ذلك انشغال بالعلم النافع الذى يحث عليه القرآن ويرغب فيه الرسول. وأوضحت أن المسلمين الآن لا يمكن لهم أن يحققوا تعاليم الإسلام إلا بالعلم بكافة أنواعه وشتى ضروبه لأن إعداد القوة للأعداء لا تتأتى ولا تتحقق إلا بالعلم ولأن زراعة الأرض وعمارتها لن تتحقق إلا بالعلم . ولكن شتان بين مشتغل بعلم كلما اكتشف شيئاً أو حقق اختراعاً كلما ازداد قرباً من الله ، وبين مشتغل آخر كلما اكشف مخترعاً جديداً

كلما زاد طغياناً وفساداً واستكباراً فى الأرض كما هو شأن الكثيرين الآن فى الحضارة الغربية.

أما التعقيب الثانى: فكان عن الدين الحق الذى ينقذ البشرية وقصدت به الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ لما امتاز به من خصائص وبينت أن البشرية فى أمس الحاجة إليه الآن . واقتصرت على جوانب ثلاثة من الإسلام يحل بها الإسلام مشاكل البشرية باعتباره رسالة عامة للعالمين واعتبار رسوله خاتماً للأنبياء والمرسلين . تمثلت هذه الجوانب فى :-

أولاً: عقيدة التوحيد:

وقد أوضحت أن التخبط الذى يصيب المجتمعات البشرية الآن يكمن فى غياب التصور الصحيح عن الألوهية. والذى لا نجده فى الديانات الكتابية مثل اليهودية، والنصرانية ولا فى الديانات الوضعية مثل الهندوسية والبوذية ، ولا فى المذاهب الوضعية مثل الرأسمالية وغيرها. وإنما نجد هذا التصور فى الإسلام الحنيف.

ثانياً: الجانب الأخلاقى.

وقد بينت أن المستنقع الآسن الذى وصلت إليه البشرية الآن من الناحية الأخلاقية التى لن يأخذ بيدها وينجيها من الغرق فيه سوى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ.

ثالثاً: جانب المعاملات بين الأفراد والدول وأن الإسلام بتعاليمه المبثوثة فى القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية. هو الأمل المنشود للبشرية كلها تحقيقاً لوعد الله. وإنما اقتصرت على هذه الأمور الثلاثة لأنها من وجهة نظرى المتواضعة هى الأهم. وإلا فإن تعاليم الإسلام كلها فى غاية الأهمية. والأمر الثانى الذى دعانى للاقتصار على هذه الجوانب الثلاثة. أن الدراسة ليست مخصصة لشرح تعاليم الإسلام.

أسأل الله أن يعز دينه وأن يمكن لأتباعه ليعيدوا أمجاد السلف الصالح. إنه سميع مجيب. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

د/ فرج الله عبد الباري أبو عطا الله

رئيس قسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين

الفصـــل الأول

مصطلحات تتعلق بالاعتقاد



المبحث الأول

الدين فى اللغة والاصطلاح

ويشتمل على المسائل التالية :

المسألة الأولى: الدين ودلالاته فى اللغة العربية .

سوف نحاول تتبع معانى كلمة الدين فى المعاجم اللغوية حتى نقف على استعمالها اللغوى. آملين أن نصل إلى ضوابط تجمع المعانى المختلفة للكلمة.

يقول ابن فارس " الدال والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها وهو جنس من الانقياد والذل " [١]

وبالنظر فى المعاجم اللغوية وكتب التفسير وشروح السنة وجدنا أن الدين من الناحية اللغوية يطلق على عدة معان . منها :-

١- الطاعة

يقال دان له يدين ديناً إذا أصحَبَ وانقاد وطاع، وقوم دينُ أى مطيعون منقادون، وقد دنته أطعته. ومنه قول عمرو بن كلثوم

وأياماً لنا غـــراً كـــراماً عصينا الملك فيها أن ندينا [٢]

وأصل الدين هو الطاعة والجزاء ثم استعير للشريعة، والدين كالملة لكنه يقال باعتبار الطاعة والانقياد للشريعة [٣]

٢- الحَكَم القَاضِى

ومنه الديَّان وكان علِّى ديَّان هذه الأمة أى قاضيها وحاكمها[٤] ومنه قوله ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾[٥] أى فى حكمه وقضائه

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج ٢ ص ٣١٩ تحقيق عبد السلام هارون

(٢) لسان العرب ج ٢ ص ١٤٦٧ - ١٤٧٠

(٣) معجم القرآن ص ٢٢٣ - ٢٢٤

(٤) لسان العرب والقاموس المحيط ج ٤ ص ٢٢٦ - ٢٢٧

(٥) سورة يوسف الآية ٧٦

٣ـ السياسة والقهر

تستعمل كلمة الدين بمعنى السياسة ومنه قول ذى الإصبع

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب فينا ولا أنت ديَّانى فتخزونى

أى لست بقاهر فتسوس أمرى [١]

٤ ـ الجزاء والحساب الحُكم

ومنه يوم الدين أى الجزاء والحساب. سواء أكان يوم الحكم أو الجزاء والحساب فأى ذلك كائن فهو أمر يُنقاد له. وقال أبو زيد: دين الرجل يُدان إذا حُمل على ما يكره[٢] وفى المثل " كما تدين تدان " أى كما تُجازِى تُجازَى بفعلك وحسب ما عملت ومنه قوله تعالى ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[٣] أى مجزيون محاسبون

٥ ـ العادة والشأن

يُقال ما زال ذلك دينى وديدنى أى عادتى وشأنى يقول ابن فارس " أما قولهم إن العادة يقال لها دين فإن كان صحيحاً فلأن النفس إذا اعتادت شيئاً مرَّت معه وانقادت له، وينشدون فى هذا:

كدِينك من أم الحويرث قَبلَها وجارتها أمِّ الربَّاب بمأسلَ [٤]

ومنه قوله

يا دين قلبك من سَلمىَ وقد دِيناً[٥]

أى يا عادة قلبك، وقد دِيْنَا أى حُمل على ما يكره.

٦ ـ الذل

يطلق الدين على الذل ، والَمدين العبد، والمدينة الأمَة كأنها أذلها العمل، والمدينة الحاضرة كأنها مفعلة سميت بذلك لأنها تقام فيها طاعة ذوى الأمر[٦]

---

(١) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ج ١ ص ١١٥ـ١١٦
(٢) معجم مقاييس اللغة ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠
(٣) سورة الصافات الآية ٥٣
(٤) معجم مقاييس اللغة ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠
(٥) المحرر الوجيز ج ١ ص ١١٦
(٦) انظر معجم مقاييس اللغة ج ١ ص ٣١٩والمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ج ١ ص ١١٦

٧ـ الحال

من الإطلاقات التي تستعمل بمعنى الدين فى لغة العرب الحال قال النضر بن شميل: "سألت أعرابياً عن شيء فقال لى لو لقيتنى على دين غير هذا لأخبرتك " أى على حال[١]

ولعلنا نلاحظ المعانى المتعددة التى تتحملها إطلاقات كلمة الدين غير أن هذا التنوع فى استخدام الكلمة فى المعاجم اللغوية جعلها - أى المعاجم - لا تحدد بالضبط المعنى الدقيق لكلمة (الدين) ، ولعل من أبلغ من عبر عن هذا التنوع فى تلك المعاجم، وتلمس العذر لواضعيها

الدكتور " دراز " حيث يذكر عن هذه المعاجم أنها إنما وضعت " لضبط اللسان لا لتثقيف الجنان "[٢]

المحاور التى تدور حولها كلمة دين

بعد هذا الاستعراض يمكن أن نخلص إلى أن كلمة دين - تعود إلى ثلاثة معان تكاد تكون متلازمة -[٣]

أولاً: فهى تؤخذ من فعل متعد بنفسه " دانه يدينه " أو دانه ديناً ونعنى بذلك أنه حكمه وملكه وساسه ودبره وقهره ، وحاسبه وقضى فى شأنه فالدين بهذا الاستعمال يدور حول معنى المُلك والقهر والمحاسبة والمجازاة[٤] ولأن الحساب والجزاء معنى أصيل فى استخدام العرب لكلمة دين.

ثانياً: تأتى كلمة الدين من فعل متعد باللام " دان له " ومعناه أطاعه وخضع له فالدين هنا بمعنى الخضوع والطاعة العبادة.

ثالثاً: تأتى كلمة الدين من فعل متعد بالباء " دان به " كقولنا دان الشيء معناه اتخذه ديناً واعتقده واعتاده، وتداين القوم استدان بعضهم

---

(١) المحرر الوجيز ج ١ ص ١١٦ انظر فى المعانى المتعددة لاستخدام كلمة دين — القاموس المحيط ج ١ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ومختار الصحاح ص ٢٠٤ ، والمعجم الوسيط ج ١ ص ٣٠٤

(٢) الدين للدكتور دراز ص ٢٩

(٣) نفسه ص ٢٥

(٤) الدين للدكتور دراز ص ٢٦

بعضاً وتعاملوا بالدَيْن وهذا الاستعمال تابع للاستعمالين من قبله لأن العادة أو العقيدة التى يُدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله ينقاد لها ويلزم اتباعها.

وينتهى الدكتور " دراز " إلى أن مادة دين تدور حول معنى لزوم الانقياد كما فى الاستعمال الأول الذى هو إلزام الانقياد، وفى الاستعمال الثانى هو التزام الانقياد. وهناك فرق بين الإلزام والالتزام، وفى الاستعمال الثالث هو المبدأ الذى يلتزم الانقياد له "[١] وإن كان للبعض رأى آخر فى أصل كلمة دين ـ فيرى الإمام الأكبر الشيخ " مصطفى عبد الرازق " ـ أن أكثر المعاجم اللغوية تجمع لفظ دَيْنْ ولفظ دِيْنْ فى مقام واحد باعتبار أنهما من مادة واحدة ويتساءل " أفليس من المعقول أن تكون كلمة دين بمعنى ملة مأخوذة من كلمة دين بمعنى الشيء غير الحاضر فإن أساس الأديان كلها الإيمانِ بأمر وراء هذا الموجود المحسوس الحاضر "[٢]

غير أننا نرى أن هذا تضييق لاستعمال كلمة " دين " بعد أن رأينا استخداماتها ـ المتنوعة ـ وحصرها فى معنى واحد بلا مرجح والأولى بالقبول هو ما عبر عنه الدكتور دراز لجمعه المعانى المتعددة لكلمة " دين " فى رباط جامع يتمثل فى تعدى الكلمة بنفسها.

وهذا التعدى يجمع عدة إطلاقات وكذلك تعديها باللام، وتعديها بالباء، وفى كل معانيها. فإنها تعنى الإلزام والانقياد مع ما يتطلبه الإلزام من صاحب طاعة ومطيع، وشئ يُنفَذَ أو يُفْعَلْ من جانب المطيع إرضاءً لصاحب الطاعة والانقياد.

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ٢٦ ـ ٢٧ وانظر مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص ٦ للدكتور عوض الله حجازى وانظر فى الدين المقارن ص ١٩ للدكتور محمد كمال جعفر دار الكتب الجامعية ١٩٧٠

(٢) الدين والوحى والإسلام ص ٣٥

المسألة الثانية: وقفة مع بعض المستشرقين حول كلمة دين وأصالتها فى اللغة العربية.

بعد هذه الجولة الواسعة بين المعاجم والقواميس اللغوية القديمة منها والمعاصرة فى كلمة " دين " والمعانى المختلفة التى تتحملها فى لغة العرب وأشعارها بعد هذا كله يطالعنا أحد كُتاب دائرة المعارف الإسلامية من المستشرقين برأى يقول فيه " ذكر فقهاء اللغة من العرب فى مادة دين معانى مضطربة أساسها كلمات ثلاثة قائمة برأسها

١ـ كلمة آرامية عبرية معناها الحساب

٢ـ كلمة عربية خالصة ، ومعناها عادة أو استعمال تَمُتُ هى والكلمة الأولى إلى أصل واحد مثلها فى ذلك مثل الكلمة العبرية "تشبات" بالنسبة إلى الكلمة "شافاط"

٣ـ كلمة فارسية مستقلة تمام الاستقلال معناها ديانة، ويستشهد هذا المستشرق بكلام مستشرق آخر فيقول " وقد عارض " فولرز " الرأى القائل بوجود كلمة عربية خالصة هى دين ، وبيَّن أن الكلمة الفارسية "دين" بمعنى ديانة كانت مستمدة بالفعل من اللغة العربية أيام الجاهلية وذهب إلى أن المعنى عادة أو استعمال اشتق من هذه الكلمة " ZEITSCHR- FASSYR [1] وهو بهذا الطرح ينفى وجود كلمة عربية خالصة بمعنى الدين وإذا عورض باستعمالها عند العرب فى الجاهلية رد ذلك إلى أن أصلها فارسى.

ويواصل افتراءاته فيقول " وكان من الطبيعى أن يؤدى هذا الاضطراب إلى وقوع مفسرى القرآن فى مصاعب لا تنتهى ، وشاهد ذلك أنهم حين تعرضوا لتفسير آية (مالك يوم الدين) انظر تفسير البيضاوى ، والرازى، والطبرى حاروا حيرة شديدة فى التماس ما يؤدى بهم إلى هذا المعنى.. على أننا يمكن أن نرد آيات القرآن جميعاً إلى معنى أو آخر من معانى هذه الكلمة الثلاث التى ذكرناها آنفاً "[2]

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة دين ج ٩ ص ٣٦٨

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج ٩ ص ٣٦٨

كانت هذه هى الشبهة التى أثارها بعض كُتاب دائرة المعارف الإسلامية من المستشرقين.

ويمكن الرد عليهم فى النقاط التالية: -

أولاً: إن كلامهم لا يقوم على أى معيار علمى وأن الأمر لا يعدو أن يكون نزعة شعوبية تريد تجريد العرب من كل فضيلة حتى فضيلة البيان التى هى من أعز مفاخرهم [(١)]

ثانياً:- بالرجوع إلى المفسرين الذين وصفهم كاتب مادة " دين " بأنهم حاروا حيرة شديدة فى التماس ما يؤدى بهم إلى أن معنى الدين فى قوله (مالك يوم الدين) المقصود به الحساب والجزاء، وجدنا أنهم عبروا عن تفسير الدين بالحساب والجزاء فى منتهى الوضوح، والبيان واستدلوا على ما ذهبوا إليه بلغة العرب وشواهد من أقوال الصحابة والتابعين وهذا يوضح مدى الافتراء الذى يمارسه بعض المستشرقين على اللغة والدين من ناحية وعلى العلماء والحقيقة من جهة أخرى. وسوف نعرض رأى المفسرين الذين ذكرهم كاتب دائرة المعارف. ليرى القارئ مدى صدق كلام المستشرقين من عدمه.

يقول إمام المفسرين " الطبرى " فى تفسير قوله تعالى ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[(٢)] والدين فى هذا الموضع بتأويل الحساب والمجازاة بالأعمال كما قال كعب بن جُعَيْلِ

إذا ما رمونا رميناهم ودناهم مثل ما يقرضونا

ومن ذلك قوله ﴿ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ ﴾ يعنى الجزاء وقوله ﴿ ﴿٨٦﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ يعنى مجزيين بأعمالكم ولا محاسبين يقول " وللدين معان فى كلام العرب غير معنى الحساب والجزاء ثم يستدل على تفسير الدين بالحساب والجزاء بالآثار الواردة عن الصحابة فينقل عن ابن عباس وابن مسعود أن يوم الدين يوم الحساب"[(٣)] ونحن نسأل هذا المستشرق أى اضطراب إذن حصل فى كلام

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ٢٧ - ٢٨

(٢) سورة الفاتحة الآية ٤.

(٣) تفسير الطبرى ج ١ ص ١٥٦ تحقيق أحمد ومحمود شاكر دار المعارف

الطبرى وقد رأيناه يستدل وبتمكن على ما ذهب إليه بكلام العرب وبالمأثور عن الصحابة رضوان الله عليهم.

أما الفخر الرازى الذى اتُهم بالاضطراب فى تفسير الآية فنصه كالآتى " قوله ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ سورة الفاتحة الآية ٤ أى مالك يوم البعث والجزاء، وتقديره أنه لابد من الفرق بين المحسن والمسئ والمطيع والعاصى، والموافق والمخالف وذلك لا يظهر إلا يوم الجزاء "(١)

وأيضاً البيضاوى يفسر يوم الدين بيوم الجزاء والحساب ويستدل بلغة العرب على ذلك يقول " ومنه كما تدِيْنُ تُدَانْ "(٢)

وكما هو واضح من النصوص التى نقلناها عن المفسرين الذين اتهموا من قِبَل بعض المستشرقين بالاضطراب لاحظنا الدقة فيما ذكره المفسرون حول (مالك يوم الدين) ولم يُحاروا فى تفسيرها كما زعم كاتب دائرة المعارف وهذا ما حدا بالشيخ مصطفى عبد الرازق إلى استبعاد أن يكون لفظ " دين " بمعنى الملة لفظاً غير عربى خصوصاً مع الاعتراف بوجود اللفظ نفسه عربياً. بمعنى آخر فى رأى " ماكدونالد " كاتب دائرة المعارف الإسلامية (٣)

ثالثاً: والذى بدا لى أن كُتاب دائرة المعارف لاحظوا اختلاف المفسرين حول قراءة مالك ، وملك فتوهموا أن المفسرين اضطربوا واحتاروا فى تفسير يوم الدين بالحساب والجزاء ، وهذا ما لم يحدث كما أوضحت عند عرض رأى المفسرين فى تفسير الآية على أن شطط المستشرقين فيما ذهبوا إليه مرده إلى جهلهم باللغة العربية ومعانيها وهم من هذه الناحية آخر من يصلحون علمياً للبحث فى لغة القرآن وبلاغته كما يقول الأستاذ أحمد شاكر عليه رحمه الله (٤)

---

(١) التفسير الكبير ج ١ ص ٢٣٦

(٢) تفسير البيضاوى ص ٤

(٣) انظر الدين والوحى والإسلام ص ٣٤

(٤) هامش دائرة المعارف ج ١٢ ص ٤١٧

المسألة الثالثة: ـ الدين اصطلاحاً

يُعرف الدين* فى الاصطلاح بأنه " وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات "(١)

وبالتأمل فى التعريف نلاحظ الآتى:ـ

أولاً: أن الوضع المشار إليه فى التعريف لا يتعلق بالأحكام الشرعية فقط وإنما يدخل فيه كل ما يوحى به الله إلى رسله عليهم السلام من أمور الدنيا والآخرة ، وهذا يشمل العقائد والأعمال(٢)

ثانياً: أن التقييد هنا بكلمة إلهى يُخرج ما يضعه الساسة والحكماء من التشريعات التى يسوسون بها الرعية ويديرون شئونهم لأن هذه القوانين موضوعة ولكنها ليست من عند الله وإنما هى من صنع البشر.

ثالثاً: كلمة " سائق " فى التعريف تفيد معنى الحمل والبعث للنفس على فعل أمور الدين . لأن المكلف إذا سمع ما يترتب على فعل الواجب من الثواب وما يترتب على الفعل الحرام من العقاب انساق إلى الأول ، وترك الثانى.

ويجب أن تخصص كلمة " سائق " بالمكلفين إذا إن هناك أموراً تسوقهم وتسوق غيرهم بحكم الضرورة وبالجبلة مثل الأوضاع الطبيعية التى تسوق الحيوانات لمنافعها.

رابعاً: الاختيار المحمود يخرج الأمور التى تسوق الإنسان إلى أمور لازمة لا تكون باختياره كالآلام السائقة إلى الأنين وكالجوع الذى يسوق إلى الطعام ، والعطش الذى يسوق إلى الشراب.

أما المحمود فإنه يخرج الاختيار المذموم كالكفر وكمنع الزكاة المترتب على حب الدنيا والتعلق بها.

---

(١) البيجورى على الجوهرة ص ١٤

(٢)كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ج ٢ ص ٥٠٣

* الدين هنا باعتباره " لا يكون إلا وحياً من الله إلى أنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله " انظر الدين والوحى والإسلام ص ٤١

خامساً: الذات الواردة فى التعريف. تتعلق بالخير الذاتى الذى هو عبارة عن السعادة الأبدية ، وخرج،بالخير الذاتى كافة التعاليم والصناعات السائقة إلى الخير فإنها وإن ساقت إلى الخير والمنفعة إلا أنه خير جزئى أما الخير الكلى فهو الذى يدل عليه الدين ويأتى به [1]

(١) انظر البيجورى على الجوهرة ص ١٥ بتصرف

المبحث الثانى
الدين وإطلاقاته فى القرآن والسنة

المسألة الأولى: الدين فى القرآن الكريم (المعنى العام)

تطلق كلمة الدين فى القرآن الكريم على عدة معان منها:

١ـ الحساب والجزاء

كما فى قوله تعالى ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[١] ومنه قوله تعالى (﴿ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[٢] ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾[٣] وقوله تعالى ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾[٤] وكل كلمة دين إذا أضيفت إلى يوم فهى يوم القيامة[٥] وقد ذهب إلى أن معنى كلمة " دين " فى هذه الآيات ـ جميعها معناها الجزاء والحساب جمهرة من المفسرين واستندوا على أقوال للصحابة والتابعين يفسرون فيها يوم الدين ـ بأن المقصود به الحساب والجزاء[٦].

٢ـ النظام والملك والحكم

كما فى قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[٧] أى فى نظام ومُلك مَلِك مصر أو فى قضاء المَلِك ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾[٨] أى فى قضائه وحكمه وشريعته[٩]

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٤
(٢) سورة الواقعة الآية ٨٦ - ٨٧
(٣) سورة الانفطار الآية ١٧ـ١٨
(٤) سورة الماعون الآية ١
(٥) معجم القرآن ص ٢٢٣ـ ٢٢٤ عبد الرءوف المصرى مطبعة حجازى ١٩٨٤م
(٦) انظر تفسير ابن عطية ج ١ ص ١١٥ ، وتفسير الرازى ج ١ ص ٢٣٧ـ٢٣٨ وأبو السعود ج ١ ص ١٧
(٧) سورة يوسف الآية ٧٦
(٨) سورة النور الآية ٢
(٩) الكليات لأبى البقاء ج ٢ ص ٣٢٨ـ ٣٢٩

٣- الطاعة والإذعان

كما فى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[١] أى ومن أحسن طاعة[٢]

ومنه قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[٣] أى الطاعة والعبادة

وقوله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾[٤] أى طاعتى وعبادتى[٥]

٤ ـ الطريقة والعادة والعقيدة والمذهب

كما فى قوله تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[٦] أى لكم طريقتكم التى تتبعونها فى عبادتكم ومعاملاتكم، ولى دينى أى طريقتى التى علمنى الله إياها وأرشدنى إليها وأمرنى بها[٧]

وقد استخدم " الرازى " رحمه الله معانٍ متعددة لكلمة الدين فى تفسيره لهذه الآية، وفسرَّ الآية بها.

فينقل عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ أى لكم كفركم، ولى التوحيد والإخلاص بالله.

ويقول: إذا قيس الدين بمعنى الحساب لكم حسابكم ولى حسابى ولا يرجع إلى كل واحد منا من عمل صاحبه أثر ألبتة. أو الدين العقوبة أى فلكم العقوبة من ربى ولى العقوبة من أصنامكم لكن أصنامكم جمادات فأنا لا أخشى عقوبتها، وأما أنتم فيحق لكم عقلاً أن تخافوا عقوبة جبار السموات والأرض.

---

(١) سورة النساء ١٢٥

(٢) المفردات للراغب ص ١٧٧ـ ١٧٨

(٣) سورة الزمر الآية ١١

(٤) سورة الزمر الآية ١٤

(٥) القرطبى المجلد الثامن ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٦) سورة الكافرون الآية ٦

(٧) انظر الدين ص ٢٦ ومقارنة الأديان ص ٦

وإذا فسر الدين بمعنى العادة فمعناه لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشياطين ولى عادتى المأخوذة من الملائكة والوحى ثم يبقى كل منا على عادته وطريقته حتى تلقوا الشياطين والنار ، وألقى الملائكة والجنة[١]

بهذه الشمولية استخدم الرازى معظم المعانى المستخدمة فى كلمة الدين فى تفسير قوله تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾.

٥ـ الدين بمعنى الإسلام الذى عليه جميع الأنبياء والرسل

وردت كلمة الدين فى القرآن الكريم بمعنى الإسلام بوجه عام والإسلام فى هذه الإطلاقات اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء[٢] وعنوانه قوله (لا إله إلا الله) الدين يعنى عبادة الله وحده لا شريك له الذى بُعث به جميع الأنبياء كما دل على اتحاد دينهم نصوص الكتاب[٣] والدين الذى جاء به الأنبياء قبل محمد ﷺ هو الإسلام بمعنى إخلاص الدين والعبادة لله [٤]

وعلى هذا الإطلاق للدين بمعنى الإسلام بمعناه العام ورد ما يعرف بوحدة الدين عند جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من المؤمنين. يقول تعالى ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[٥]

ويجب أن نقرر هنا أن الدين الموحى به من الله للأنبياء هو الإسلام بمعناه العام، وقد وصف معظم الأنبياء بأنهم مسلمون، وبأن دينهم هو الإسلام.

---

(١) انظر تفسير الرازى ج ٣٢ص ١٤٧

(٢) الدين ص ١٧٥

(٣) الإيمان لابن تيمية ج ٧ ص ٦٣٥ - ٦٣٦

(٤) تفسير الرازى ج ٧ـ ٨ ص ٢٠٨

(٥) سورة النساء الآية ١٦٣

١ـ سيدنا نوح عليه السلام يذكر أن دينه الإسلام يقول تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[(١)]

٢ـ سيدنا إبراهيم عليه السلام يقول تعالى عنه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[(٢)]

٣ـ سيدنا يعقوب عليه السلام يحكى القرآن وصيته لأبنائه عند احتضاره يقول تعالى ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[(٣)]

٤ـ سيدنا يوسف عليه السلام يقول ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[(٤)]

٥ - سيدنا موسى عليه السلام يدعو قومه إلى الإسلام يقول تعالى (﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[(٥)]

٦ـ وسيدنا سليمان حكى القرآن عنه أنه دعا ملكة سبأ إلى الإسلام يقول تعالى ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾[(٦)] ويتحدث عن دينه ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾[(٧)] وملكة سبأ حين أذعنت لسليمان أعلنت أنها قد دخلت فى دين الإسلام يقول تعالى ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٤ ﴾[(٨)] وسيدنا عيسى عليه

---

(١) سورة يونس الآية ٧٢
(٢) سورة البقرة الآية ١٣١
(٣) سورة البقرة الآية ١٣٣
(٤) سورة يوسف الآية ١٠١
(٥) سورة يونس الآية ٨٤
(٦) سورة النمل الآية ٣٠، ٣١.
(٧) سورة النمل الآية ٤٢.
(٨) سورة النمل الآية ٤٤.

السلام كانت دعوته ودينه الإسلام يقول تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1]

فكلمة الإسلام فى هذه الآيات تعنى الخضوع لله وطاعته وعلى هذا فإن أتباع الأنبياء مسلمون ومن ثمَّ فجميع الملل والشرائع التى جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع وإن اختلفت فى بعض التكاليف وصور الأعمال، وبه كان الأنبياء يوصفون فالمسلم الحقيقى من كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً فى أعماله[2]. على أن الإسلام هنا يراد به الاستسلام طوعاً

فكأن المسلم هو الذي رضي بطاعة الله فاجتمعت له الطاعة والإرادة ، وإنما قلنا طوعاً حتى نميز بين نوع آخر من الإسلام بمعني الانقياد والطاعة ولكن بالقهر والكُره وعليه قوله تعالي ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[3] وهنا أسلم المؤمن طواعية والكافر اضطراراً من حيث أنه وغيره من الكائنات خاضعون الله ومنقادون له بحكم خلْقتِهِم رضوا أم كرهوا [4]

---

(١) سورة آل عمران الآية ٥٢.

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٧٠ وتفسير المراغى ج ٣ ص ١١٩

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٣.

(٤) فجر الإسلام ص ٧٠ لأحمد أمين مكتبة النهضة الطبعة الحادية عشرة

المسألة الثانية الدين فى القرآن الكريم (المعنى الخاص) للإسلام

والإسلام على هذا الوجه هو " ما اختص به محمد ﷺ من الدين والشريعة والمنهاج، وهو الشريعة والحقيقة "[١] وقد اعتبر الله أن الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ هو الدين الحق الواجب اتباعه من المشركين أو اليهود أو النصارى وبالجملة من جميع الناس.

يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٢] أى لا دين مرضى عند الله سوى الإسلام وهو التوحيد الذى جاء به محمد ﷺ والتدرع بشرعه[٣]

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية " إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين حتى خُتموا بمحمد ﷺ الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لقى الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٤]

ويقول سبحانه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٥] يذكر إمام المفسرين الطبرى فى تفسيره لهذه الآية " أى ومن يطلب غير دين الإسلام ليدين به فلن يقبل الله منه وهو فى الآخرة من الخاسرين الباخسين أنفسهم حظوظها من رحمة الله عز وجل وذكر سبحانه أن أهل كل ملة أدَّعَوْا أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين لأن من فرائض الإسلام الحج فامتنعوا فأدحض الله حجتهم"[٦] ويذكر القرطبى أن هذه الآية نزلت فى الحارث بن سويد أخو الجلاس بن سويد وكان من الأنصار ارتد عن الإسلام هو

---

(١) مجموع الفتاوى ج٧ ص ٦٣٥ - ٦٣٦.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٩.
(٣) تفسير البيضاوى ص ٦٩
(٤) سورة آل عمران الآية ١٩ وانظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥٤
(٥) سورة آل عمران الآية ٨٥
(٦) تفسير الطبرى المجلد الثالث ص ٢٤١

واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً فنزلت هذه الآية ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة، وروى ذلك ابن عباس وغيره قال ابن عباس : **وأسلم بعد نزول الآيات**[١] وينقل الطبرى عن عكرمة فى سبب نزول الآية (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً) قالت اليهود فنحن المسلمون قال الله عز وجل لنبيه ﷺ قل لهم ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ ومن كفر يعنى من أهل الملل ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ "[٢]

والخلاصة أن الإسلام فى هذه الآية مقصود به المعنى الخاص أى الدين الذى جاء به محمد ﷺ[٣]

ومن إطلاقات الدين على الإسلام بالمعنى الخاص قوله تعالى ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾[٤]

فدين الله فى هذه الآية المراد به الإسلام يقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٥]

وقوله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٦]

وللدين أسماء أخرى بمعنى الإسلام منها صراط الله فى قوله تعالى ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[٧]

ومنها كلمة الله في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾[٨]

---

(١) تفسير القرطبى ج٣/ ٤ ص ١٢٨

(٢) انظر الطبرى المجلد الثالث ص ٢١٤ ، الآية ٩٧ من سورة آل عمران

(٣) انظر تفسير الرازى ج ٨/٧ ص ١٢٥ - ١٢٦

(٤) سورة النصر الآية ١.٢

(٥) سورة آل عمران الآية ١٩

(٦) سورة آل عمران الآية ٨٥

(٧) سورة الشورى الآية ٥٣

(٨) سورة التوبة الآية ٤٠

ومنها الحبل فى قوله تعالى ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[١]

وبعد أن يعدد الرازى إطلاقات كلمة الدين بمعنى الإسلام يقول : " وإنما قال فى دين الله ولم يقل فى دين الرب ولا سائر الأسماء لوجهين:

الأول: أن هذا الاسم أعظم لدلالته على الذات والصفات فكأنه يقول : هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول.

الثانى : لو قال دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليه قبوله لأنه رباك وأحسن إليك، وحينئذ تكون طاعتك له معللة بطلب النفع فلا يكون الإخلاص حاصلاً"[٢]

ومن إطلاقات الدين على الإسلام بالمعنى الخاص قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[٣]

وقوله تعالى ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾[٤]

فالمراد بالدين فى جميع هذه الآيات هو نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها المختلفة من ناحية الاعتقاد والتشريع والسلوك [٥] لأن الدين عند المسلمين معنى جامع لكل تصرف يتصرفه المرء المسلم فى حياته منذ أن يستيقظ من نومه إلى أن يؤوب إلى فراشه، وفى كل عمل يعمله مهما اختلفت هذه الأعمال من أحقرها إلى أدناها إلى أشرفها وأعلاها كل ذلك دين هو مسئول عنه يوم القيامة وعلى هذا المعنى يحمل قول الله تعالى على لسان رسول الله ﷺ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[٦]

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣

(٢) تفسير الرازى ج ٣٢ص ١٥٧

(٣) سورة التوبة الآية ٣٣

(٤) سورة التوبة الآية ٢٩

(٥) انظر المصطلحات الأربعة ص ٨٥ - ٨٦ - ٨٧

(٦) سورة الأنعام الآية ٦٣ وانظر فى مفهوم الدين كتاب أباطيل وأسماء ص ٢٣٢ - ٢٢٤ للأستاذ محمود شاكر – طبعة المدنى الطبعة الثانية.

المسألة الثالثة كلمة الدين واطلاقاتها فى السنة النبوية

وردت كلمة الدين فى السنة النبوية الشريفة بمعان عدة [١] لا تخرج عما ورد فى القرآن من إطلاقات بالمعنى العام والخاص.

١ـ وردت كلمة الدين بمعنى التوحيد

روى البخارى بسنده عن ابنِ عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه. فلقى عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إنى لعلى أدين دينكم فأخبرنى فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله. قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وإنى أستطيعه؟ فهل تدلنى على غيره؟ قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله" [٢] وهذا النص جزء من حديث طويل.

والشاهد فى هذا الحديث قوله " يسأل عن الدين " أى عن التوحيد [٣].

وفيه أيضاً إطلاق لفظ الدين على ما عليه اليهود من اعتقاد وعبادة باطلة — كما أخبر اليهودى زيد.

أما ما ورد فى الحديث من قوله " وما الحنيف؟

قال : دين إبراهيم . فيُقصد به الدين الحق بدليل قوله " ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله " ورد أن زيد بن عمرو كان يفتخر على أهل مكة قائلاً: ما بقى أحدٌ منكم على دين إبراهيم إلا أنا "[٤]

٢ـ بمعنى الحساب والجزاء

من إطلاقات الدين فى السنة إطلاق اللفظ على الجزاء سواء فى الخير أو فى الشر ، وكذلك إطلاق اللفظ على الحساب ـ وهى معانى لا تخرج عما ورد فى القرآن الكريم كما أسلفنا ولا عما ورد فى لسان العرب . وقد ذكر البخارى رحمه الله تحت

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ج ٢ ص ١٦٣

(٢) البخارى كتاب مناقب الأنصار باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل ج ٢ ص ١٤٢

(٣) فتح البارى ج ٧ ص ١٤٤

(٤) نفسه ص ١٤٥

باب ما جاء فى فاتحة الكتاب ما نصه :" الدين الجزاء فى الخير والشر كما تدين تدان ، وقال مجاهد : الدين الحساب[١]

وقد أورد ابن حجر فى شرحه لقول البخارى ما يفيد أن ما ذكره البخارى من معنى للدين هو " كلام أبى عبيدة أيضاً قال الدين الحساب والجزاء يقال فى المثل كما تدين تدان[٢] ثم تتبع ابن حجر ما أورده البخارى فى قوله كما تدين تدان " بأن ذلك ورد فى حديث مرفوع أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبى قلابة عن النبى ، وهو بهذا مرسل رجاله ثقات ، وما رواه عبد الرزاق بهذا الإسناد أيضاً عن أبى قلابة عن أبى الدرداء مرفوعاً وأبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء ، وله شاهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدى وضعفه"[٣] وبعد أن يؤصل ابن حجر الحديث ويورد طرقه ـ يقول " وللدين معان أخرى: منها العادة، والعمل، والحكم، والحال، والخُلق، والطاعة والقهر والملة، والشريعة، والورع، والسياسة وشواهد أخرى"[٤]

٣ـ بمعنى الدين الباطل الذى عليه أهل الشرك

روى البخارى فى صحيحه وأبو داود فى سننه عن عائشة رضى الله عنها قالت " كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون بالحُمْس وكان سائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتى عرفات ثم يقف بها يفيض منها فذلك قوله (﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [٥]"

من دان دينها أى تبعهم واتخذ دينهم ديناً[٦] والمقصود به دين أهل الشرك من مكة.

---

(١) البخارى بهامش فتح البارى ج ٨ ص ١٥٦ كتاب التفسير باب ما جاء فى فاتحة الكتاب

(٢) فتح البارى ج ٨ ص ١٥٦ كتاب التفسير باب ما جاء فى فاتحة الكتاب

(٣) نفسه

(٤) نفسه

(٥) صحيح البخارى بهامش فتح البارى ج ٨ ص ١٨٦ـ ١٨٧ ، والآية ١٩٩ من سورة البقرة.

(٦) انظر أبو داود باب الوقوف بعرفة ج ٥ ص ٣٨٩ شرح الحافظ ابن قيم الجوزية الناشر المكتبة السلفية ـ ضبط وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان .

وفى رواية أخرى للبخارى عن عروة " والحُمسُ قريش وما ولدت "[١] والأحمس الشديد على دينه، وكانت قريش تُسمى الحُمْس، وكان الشيطان قد استهواهم فقال لهم إن عظمتم غير حرمكم استخف الناس بحرمكم فكانوا لا يخرجون من الحرم "[٢]

أما قوله " والحُمس قريش ما ولدت " عن أبى عبيدة معمر بن المثنى قال : كانت قريش إذا خطب إليهم الغريب اشترطوا عليه أن ولدها على دينهم فدخل فى الحُمْس من غير قريش ثقيف، وليث وخزاعة، وبنو عامر بن صعصعة يعنى وغيرهم، وعرف بهذا أن المراد بهذه القبائل من كانت له من أمهاته قريشية لا جميع القبائل المذكورة [٣]- المقصود هنا أن من دان بدين أهل مكة وهو الشرك والكفر بالله كان يفعل فعلهم . فجاء رسول الله ﷺ فخالفهم، وأمر المسلمين أن يفيضوا من حيث أفاض الناس. والمقصود به إبراهيم عليه السلام. فقد روى ابن أبى حاتم وغيره عن الضحاك أن المراد بالناس هنا إبراهيم عليه السلام وعنه المراد به الإمام وعن غيره آدم عليه السلام وحجة من ذهب إلى أن المقصود بالناس إبراهيم عليه السلام على اعتبار أن الحج من ميراث إبراهيم. ومحمد مأمور أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً ولكن ابن حجر رجح أن المقصود بالناس هنا العموم وهذا ما تستريح إليه النفس[٤]

٤ ـ وتأتى كلمة الدين فى السنة بمعنى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ

روى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى قالت " لم أعقل أبوى قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعشية "[٥] وهذا جزء من حديث طويل.

---

(١) البخارى بهامش فتح البارى ج ٣ ص ٦٠٢

(٢) نفسه ج ٣ ص ٦٠٣

(٣) نفسه ج ٣ ص ٦٠٤

(٤) نفسه

(٥) البخارى بهامش فتح البارى ج ٧ ص ٢٣٠ كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة

يذكر ابن حجر أن قول عائشة " لم أعقل أبوى " بمعنى أبا بكر وأم رومان قوله "يدينان الدين" بالنصب على نزع الخافض أى يدينان بدين الإسلام[١]

والشاهد هنا أن الدين فى حديث عائشة استخدم بمعنى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ . وفيه أن أبا بكر وأم رومان من السابقين فى الإسلام بدلالة هذا الحديث وأن عائشة منذ أن وعيت وأبواها على الإسلام ، وقد وردت روايات متعددة تفيد أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال.

---

(١) نفسه ج ٧ ص ٢٣٢

المبحث الثالث

دحض دعوى نجاة غير المسلم بعد ظهور الإسلام وبلوغه دعوته ودفع توهم نجاة أحد من أتباع الأديان بعد مجئ الرسول ﷺ بالإسلام.

نقف هنا وقفة مع بعض الذين يتوهمون أن النجاة من النار يمكن أن تتحقق لأحد من أتباع الأديان كاليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها بعد بعثة محمد ﷺ ـ وأكثر ما يكون الخلط عند استعمال بعض الآيات الواردة فى القرآن على عمومها ـ مع أن المقصود منها التقييد بدين الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ .

يقول " المراغى " فى تفسير قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ أى أن جميع الملل والشرائع التى جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع وإن اختلفت فى بعض التكاليف وصور الأعمال وبه كان الأنبياء يُوصَفُوْنْ فالمسلم الحقيقى من كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً فى أعماله مع الإيمان من أى ملة كان وفى أى زمان وجُد، وهذا هو المراد بقوله عز وجل ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [١]

ونرى أن هذا الإطلاق يجب أن يقيد لأن القول بأن المسلم من كان مخلصاً فى أعماله مع الإيمان من أى ملة كان وفى أى زمان وجُد " فيه نوع من الإيهام وكان يجب أن يقيد هذا بمن كان شأنه قبل بعثة محمد ﷺ ـ أما بعثة محمد ﷺ ـ فلا يقبل من أحد صرفاً ولا عدلاً إلا إذا آمن بمحمد ﷺ وتخلص من معتقداته السابقة ـ وبناءً على ذلك فلا إسلام بعد بعثة النبى إلا الإسلام بمعناه الخاص الذى ختم الله به الرسالات، ويتضح ذلك جلياً فى دعوة النبى لليهود أن يسلموا ـ فقالوا أسلمنا قبلك ـ وهم يقصدون الإسلام العام ـ فدعاهم النبى ﷺ إلى أداء فريضة الحج أحد أركان

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥ وانظر تفسير المراغى ج ٣ ص ١١٩

الإسلام بمعناه الخاص . فأبوا فأنزل الله ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[١]

ونفس الأمر حدث مع النصارى الذين حضروا من نجران ودار بينهم وبين النبى ﷺ حوارٌ ولما وجدهم النبى من عشاق الجدل وعُباد الحوار عرض عليهم الإسلام. أخرج ابن سعد فى الطبقات عن الأزرق بن قيس قال : قدم على النبى ﷺ أسقف نجران والعاقب فعرض عليهما الإسلام فقالا : إن كنا مسلمين قبلك قال كذبتما ، وأنه منع منكما الإسلام ثلاث قولكما: اتخذ الله ولداً، وأكلكما لحم الخنزير ، وسجودكما للصنم" [٢]

ولذلك تكون عبارة الشيخ المراغى عن المسلم الحقيقى " من كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً فى أعماله مع الإيمان من أى ملة كان، وفى أى زمان وجُد وهذا هو المراد بقوله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[٣] عبارة مطلقة فى موضع يجب فيه التقييد بمن كان قبل بعثة النبى ﷺ أما بعد بعثة محمد فإن المسلم الحقيقى هو من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأخلص وجهه لله وعمل بموجبها.

وقد التفت إلى هذا المعنى الدكتور " عبد الحليم محمود " فى لفتة رائعة منه لتحديد من هو المسلم الحقيقى يقول " والإسلام هو الدين فى إطلاقه المطلق وفى تحديده المحدد فمما لا شك فيه أنه لا دين خارج إسلام الوجه لله، وأن الدين فى معناه الصحيح إنما هو إسلام الوجه لله ، ومن هنا كان لفظ الإسلام أصدق تعبير عن الدين وكانت القضية ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٤] قضية لا شك فيها وكانت القضية المترتبة على هذه ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٧ وانظر تفسير الطبرى المجلد الثالث ص ٢٤٢ ولباب المنقول فى أسباب النزول للسيوطى ص ٨٣بهامش المصحف

(٢) نفسه ص ٧٨ - ٧٩

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥

(٤) سورة آل عمران الآية ١٩

مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[(١)] قضية هى الأخرى لا شك فيها إن كل من يرفض إسلام الوجه لله إنما يرفض الدين، وبمقدار بُعد الإنسان أو قربه من إسلام الوجه لله يكون قربه أو بعده من المعنى الصادق للدين، وإسلام الوجه لله هو التوحيد وإذا كانت سمة النصرانية فى وضعها الراهن هى التثليث فإن سمة الإسلام هى التوحيد. إنها توحيد الله بالربوبية. بالخلق والإيجاد وبالإعطاء والمنع "[(٢)]

فلا يستقيم إسلام إنسان مع قوله عيسى ابن الله ولا قوله عزير ابن الله وهذه قيود توضع على كلمة الإسلام بالمعنى العام، وأيضاً بالمعنى الخاص فما جاء موسى ولا عيسى ولا محمد ﷺ بغير توحيد الله

إننا ننطلق من قوله تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[(٣)] فى حكمنا على كل نصرانى أو يهودى أو بوذى أو هندوسى سمع بالإسلام وبلغته دعوته ثم لم يؤمن ويصدق بمحمد ﷺ فهو كافر ومشرك وإن مات على ذلك فهو مخلد فى النار أبد الآبدين.

يقول ﷺ : " والذى نفسى بيده ما من يهودى ولا نصرانى يسمع بالذى جئت به ثم لا يؤمن إلا كان من أصحاب النار "[(٤)]

ولابد من الإشارة إلى بعض الآيات القرآنية التى يحاول البعض أن يفهم منها خطأ أن اليهود والنصارى، والصابئين إذا آمنوا بالله واليوم الآخر فهم ناجون في الآخرة ويستشهدون بقول الله تعالي ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝[(٥)]﴾ وأكثر ما نسمع الكلام حول هذه الآية حين يكون الحديث عن العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أرباب الديانات الكتابية.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥.

(٢) الإسلام والإيمان ص ٥٧ -٥٨ – ٥٩ للإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود الطبعة الثانية دار الكتب الحديثة

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥.

(٤) انظر شرح الطحاوى ص ١٧٠ والحديث أخرجه مسلم تحت رقم ١٥٣ انظر هامش الطحاوى ص١٧٠.

(٥) سورة البقرة الآية ٦٢.

فيحاول البعض أن يضيع الحدود الفاصلة بين الحق والباطل وبين الصحيح والفاسد من الأديان بعد تحريفها وتبديلها .[١] فيؤولون هذه الآيات ويخرجون معانيها عما تعارف عليه جمهور العلماء من المفسرين وغيرهم من علماء الإسلام .

يذكر الرازي في تفسيره لهذه الآية أن المراد الذين آمنوا قبل مبعث محمد صلي الله عليه وسلم بعيسي عليه السلام مع البراءة من أباطيل اليهود والنصارى مثل قس بن ساعدة وبحيري الراهب وزيد بن عمرو بن نفيل ، وورقة بن نوفل وسلمان الفارسي، ووفد النجاشي فكأنه قال : إن الذين آمنوا قبل مبعث محمد والذين كانوا على الدين الباطل الذي لليهود والذين كانوا على الدين الباطل الذي للنصارى كل من آمن منهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وبالله وباليوم الآخر وبمحمد فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون[٢].

ونلاحظ أن الإمام " الرازي" فهم من الآية أن من آمن من هؤلاء بالله واليوم الآخر ثم من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فله أجره عند ربه ولا خوف عليه ولا حزن .

وإذا كنا قد أخذنا نموذجاً لتفسير الآية من أحد القدامى وهو الإمام الرازي فإننا سنعرض رأي أحد المُحدثين في تفسيره للآية :

يقول الأستاذ سيد قطب " الذين آمنوا يعني بهم المسلمين والذين هادوا من اليهود، والنصارى هم أتباع عيسي عليه السلام، والصابئون الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب (قبل البعثة) الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرضونها فاهتدوا إلى التوحيد وقالوا إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة إبراهيم واعتزلوا عبادة قومهم دون أن يكون لهم دعوة فيهم فقال عنهم المشركون إنهم صبأوا أي مالوا عن دين آبائهم كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك. والآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعاً وعمل صالحاً فإن لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي المجلد الثاني ج ٣ ص ١١٢

(٢) ظلال القرآن ج ١ ص ٧٥.

يحزنون فالعبرة بحقيقة العقيدة لا بعصبية جنس أو قوم وذلك طبعاً قبل البعثة المحمدية أما بعدها فالآية تحدد شكل الإيمان الأخير فلا نجاة لأحد إلا بدخوله في دين محمد صلي الله عليه وسلم وهو الإسلام [١] والإسلام هنا بمعناه الخاص يقول تعالي (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً) [٢] رقم الآية خطأ

والذي دعانا أن نعرض الآية وتفسيرها عند أحد القدامى وأحد المُحْدَثِيْن لنبين أنه ما كان يخطر على بال أحد أن النجاة في الآخرة من الممكن أن تتم لأحد دون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ولكن البعض من الكُتاب ـ هداهم الله ـ يحاول أن يضيع الحدود الفاصلة بين المسلمين من أتباع محمد، وبين غيرهم من أتباع الأديان الأخرى فيقول " إن المسلمين في لغة القرآن هم المؤمنون بالله الواحد، وليسوا أتباع دين خاص [٣]

وآخر في حديث له في التلفاز بمناسبة الإسراء والمعراج يعتبر أن ما جاء في حديث الإسراء والمعراج من قوله ﷺ عن لقائه بالأنبياء وأخوته لكل منهم " أخي موسى أخي عيسى" يعتبر هذا إعلان بالأخوة بين الإسلام والمسيحية [٤] وهذا نوع من الخلط والتمويه فمحمد ﷺ وعيسى دينهم واحد ولكن شتان بين أتباع عيسى بعد بعثة محمد ﷺ وأتباع محمد، ولا يمكن أن نقول إنه يجمعهم الإسلام على اعتبار أن المسلمين فى لغة القرآن ليسوا أتباع دين خاص – كما يقول البعض – إنه وكما يقول البيرونى " إن الشهادة بكلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) شعار المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسبات (أى اتخاذ يوم السبت يوماً مقدساً) علامة اليهود " [٥] فأى إسلام إذن مع التثليث ، وعند من نجد التوحيد بعد بعثة محمد ﷺ ؟ إن التوحيد بمعناه الصحيح ليس عند أحدٍ من الأمم إلا عند أتباع دين الإسلام بمعناه الخاص.

---

(١) ظلال القرآن ج ١ ص ٧٥

(٢) سورة النساء الآية ٦٥

(٣) انظر جريدة الأهرام القاهرية ١٩٨٧/٣/١٧

(٤) انظر مقدمة الدكتور يحيى هاشم لكتاب اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام ص ١١

(٥) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٣٩ لأبى الريحان البيرونى – عالم الكتب ١٩٨٣م

كما يحاول البعض أن يخلط – بين الإسلام بمعناه الخاص ومعناه العام ـ يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم " إن بعض الباحثين الذين نكن لهم الاحترام عندما يكتبون فى مجالات غير تخصصهم تنزلق بهم الأقدام فى هذا المقام. إذ يخلط بعضهم بين كلمة الدين عندما يراد بها المعنى اللغوى العام الذى يشمل الصحيح وغيره، وكلمة الدين عندما يراد بها المعنى الخاص الذى لا ينطبق على غير الصحيح فيكون عندئذ خاصاً بالإسلام يخلط بين الاستعمالين فيقتنص شواهد من المقام الأول يستعملها فى خصائص من المقامَ الثانى وعندئذ يعلن تعددية الأديان فى نظر الإسلام "[١]

ثم ينتهى فضيلته إلى وضع بعض القواعد الهامة فى تحديد الدين بمعنى الإسلام " لا إسلام ولا دين مقبولاً عند الله بعد بعثة محمد ﷺ إلا بالإيمان به وباتباع كل ما جاء به ، والقرآن صريح وقاطع فى وصف عقائد أهل الكتاب بأنها كفر وشرك وبأن مصير أصحابها إلى النار "[٢] وإن رفضنا لما عليه أتباع أهل الأديان الأخرى بعد التحريف والتبديل لا يعنى رفضنا للتوراة، والإنجيل الصحيحين إذ يعتقد المسلمون أن الله أنزل كتاباً على موسى اسمه التوراة وأنزل الإنجيل على عيسى ولكن أين هما؟ إن القرآن يعلن ويتحدى اليهود وكذا النصارى ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[٣] ومن ثَم يجب أن توضع الأمور العقدية فى وضعها الصحيح فلا نحرف ديننا ولا نأتى على عقيدتنا لحساب أى طرف وتحت أى ظرف لأن أتباع الأديان الأخرى يحافظون على عقيدتهم ويتمسكون بها، وإذا فعلنا فالخسارة ستلحق بنا دنيا وأخرى. وسنكون على خطر عظيم إذا نحن ساومنا الغير على الحق الذى شرفنا الله به ـ ولذلك حسم الله قضية الدين بمعنى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ واعتبر أن أتباعه هم وحدهم أصحاب الحق والهدى، وأن غيرهم على ضلال وشقاق ـ يقول تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ

---

(١) مقدمة كتاب اليوم الآخر ص ١٢

(٢) نفسه ص ١٣ ، ١٤

(٣) سورة آل عمران الآية ٩٣

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[١]

يذكر البغوى أن الآية نزلت فى رؤساء اليهود[٢] وفى نصارى أهل نجران وذلك أنهم خاصموا المسلمين فى الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله وأن دينها أفضل، وكفروا بمحمد ﷺ والقرآن، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك فقال تعالى (قل) يا محمد (بل ملة إبراهيم) بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ثم عَلَّمَ المؤمنين طريق الإيمان فقال جل ذكره (قولوا آمنا بالله) الآية ـ ثم قال سبحانه **(فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا)** أى أتو بإيمان كإيمانكم وتوحيد كتوحيدكم[٣] فقد اهتدوا يقول سيد قطب " رحمه الله " قوله **(فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا)** هذه الآية تسكب فى قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه ، ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق المعادى للهدى، وأما المؤمن فإن الله هو وليه وهو الذى يدافع عنه "[٤] هذا هو المعنى الصحيح الذى يجب أن يعتقد فيه المسلم ويعتنقه من ناحية المفاضلة بين الدين الحق المتمثل فى الإسلام وبين غيره من الأديان.

وتبقى هنا وقفه هامة مفادها أن المفاصلة فى أمور العقيدة بين المسلم وبين غيره شيء ومعاملة المسلم مع غيره من أتباع الأديان الأخرى فى المجتمع شيء آخر.

وكما يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم " إن الاستقرار والتعايش وتجنب الفتنة لا يكون قط بمحاولات طمس الحدود ما بين العقيدتين فهذا لا يرضى أياً من الطائفتين لأنه يتعدى عليهما معاً.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٥ـ ١٣٦ ـ ١٣٧

(٢) انظر لباب المنقول فى أسباب النزول للسيوطى بهامش المصحف ص ٣٠

(٣) انظر تفسير البغوى ج ١ ص ٤٧

(٤) فى ظلال القرآن ج ١ ص ١١٢ بتصرف يسير

إن الطريق إلى تجنب الفتنة الطائفية كان دائماً وسيكون بضمان من شريعة الله التى تعطى أهل الكتاب حقوقهم الاجتماعية كاملة " لهم ما لنا وعليهم ما علينا "[١] أى أن المسلم يجب عليه أن يتبع هدى الله وهدى رسول الله ﷺ فى معاملة أهل الكتاب ما لم يبدأوا بعدوان أو يظاهروا على المسلمين. وهم إن لم يفعلوا فلهم عهد الله وعهد رسوله ﷺ [٢] وكفى بعهدهما أمناً وسلاماً واستقراراً. وهذه الأمور هى فحوى المعاهدات التى تمت بين المسلمين وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى[٣] الذين ختُم العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ.

بقوله " وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله ﷺ "[٤]

وكذلك ختمت معاهدة نصارى نجران بقوله ﷺ " وعلى ما فى هذه الصحيفة بجوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتى الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مبتلين بظـلم "[٥]

وعلى هذا الأساس سارت معاهدات الخلفاء الراشدين ، ومن جاءوا بعدهم من خلفاء الدولة الإسلامية :

وكانت مصر مثالاً يحتذى به فى الأمن والأمان لأهل الكتاب الأمر الذى جعلهم يدخلون فى الإسلام طواعية - بعد أن قارنوا بين المسلمين - وبين غيرهم من الرومان على الرغم من أنهم كانوا على دين واحد. يذكر " السير توماس أرنولد " أن الفتح الإسلامى جلب إلى القبط حياة تقوم علي الحرية الدينية التى لم ينعموا بها قبل ذلك، وقد تركهم عمرو بن العاص أحراراً، وكفل لهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية ، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذى أنوْا من عبئه الثقيل فى ظل

---

(١) انظر مقدمة فضيلته لكتابنا اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام ص ١٢
(٢) انظر النماذج الرائعة لمعاملة المسلمين لأهل الكتاب خاصة النصارى فى كتاب الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد ص ٩٤ - ١٢٢
(٣) انظر نص معاهدة النبى ﷺ ليهود المدينة فى سيرة ابن هشام ج٢ ص ٨٨، ٨٩، و ٩٠و ٩١
(٤) نفسه ج ٢ ص ٩١
(٥) مختصر سيرة الرسول ﷺ ص ٤٢٧

الحكم الرومانى، ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب، وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم فى الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حُكامهم الجدد [١] ويبدو أن هذا التسامح لم يكن فترة محدودة وإنما كان على طول امتداد الحكم الإسلامى والمرجع فى هذا فضلاً عن كتب التاريخ الإسلامى تاريخ الكنيسة يقول توماس أرنولد " ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم، ونعم القبط فى عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة، وذلك أدى إلى اندماج كثير من المسيحيين فى جماعة المؤمنين "[٢] وهذا الذى ينبغى أن يكون دوماً فى علاقة المسلمين بأهل الكتاب لهم ذمة الله ورسوله. لأن الفتنة تأتى بخسارة لا يعلم مداها إلا الله. ولن يستفيد منها أحد إلا الذين يحرصون على بث الفُرقة بين أبناء الوطن الواحد. وقد تنبه عقلاء أهل الكتاب لهذا. فجاءت تصريحاتهم المعلنة لتصب فى مصلحة الجماعة يقول الأنبا شنودة " إن الأقباط فى ظل حكم الشريعة يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً، ولقد كانوا كذلك فى الماضى حينما كان حكم الشريعة هو السائد نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل " لهم ما لنا وعليهم ما علينا "[٣]

والأنبا " يوحنا قتله " وهو كاثوليكى مصرى يقول " أوافق على أن أكون مصرياً مسيحياً تحت حضارة إسلامية بل أنا مسلم ثقافة مائة فى المائة. أنا عضو فى الحضارة الإسلامية كما تعلمتها فى الجامعة المصرية تلك الحضارة التى تُعلى من قيمة الإنسان كخليفة عن الله فى الأرض، وإنه ليشرفنى وأفتخر أننى مسيحى عربى أعيش فى حضارة إسلامية ، وفى بلد إسلامى، وأساهم وأبنى مع جميع المواطنين هذه الحضارة الرائعة "[٤] وهذه النظرة التى لا تخلط بين الأمور هى التى نتمنى أن تسود، ونسأل الله لأمتنا وأوطاننا أن يجنبها شرور الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يهئ للمسلمين أمر رشد حتى يعزوا ما أعز الله، ويذلوا ما أذل الله ورسوله.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٣
(٢) انظر الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٨ و انظر مقدمة الدكتور يحيى هاشم لكتاب اليوم الآخر ص ١٢ -١٣
(٣) الإسلام والسياسة د/ محمد عمارة ص ٢٠٤ نقلاً عن صحيفة الأهرام ١٩٨٥/٣/٦م
(٤) نفسه ص ٢٠٥

المبحث الرابع

الملة فى اللغة والاصطلاح

من المصطلحات الشائعة فى دراسة الأديان الملة ـ فلزم أن نحقق معناها اللغوى والشرعى ـ وإطلاقاتها فى القرآن والسنة حتى يتبين لنا مدى توافقها مع معنى الدين من الناحيتين اللغوية والشرعية.

أولاً: الملة فى اللغة

ورد فى لسان العرب لابن منظور أن الملة تطلق على الشريعة والدين ، وفى الحديث لا يتوارث أهل ملتين، وتطلق الملة على الدين حقاً كان أو باطلاً كملة الإسلام كدين حق، وملة النصرانية واليهودية كدينين باطلين[١] وتطلق الملة على الشرك أيضاً.

وتطلق الملة على الطريقة ـ ثم نقلت إلى الشرائع من حيث أن الأنبياء يعلمونها ويسلكونها [٢] وتطلق الملة على الطريقة المسلوكة والسنة ، ويرى بعضهم أن ذلك من إملال الكتاب لأن السنة تُمَّل، وتكتب ليعمل بها ويرى آخرون أن ذلك من قولهم طريق ممل ومليل مسلوك مُعدَّة للسير، والملة تُوطأ للناس ليسيروا عليها [٣] .

ثانيا: الملة فى الاصطلاح الشرعى

تطلق الملة فى الشرع على ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصل بها إلى جوار الله [٤] ومن ثمَّ فهى تطلق على الدين من هذا الوجه يقول تعالى ﴿ وَمَن

---

(١) لسان العرب ج ٦ ص ٤٢٧١ وانظر مختار الصحاح ص ٥٦٤

(٢) الكليات لأبى البقاء ج ٢ ص ٣٢٨، و ٣٢٩

(٣) معجم ألفاظ القرآن الكريم المجلد الثانى من الشين إلى الياء ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠م مجمع اللغة العربية

(٤) المفردات للراغب الأصفهانى ص ٤٩٢

يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [١] وفى قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٢] إن الملة أطلقها الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية على الإسلام الخالص الصريح الذى لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه مستهتر بها، إن اليهود والنصارى كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم - ولكن الله يدلهم على حقيقة دين إبراهيم وأنه الميل عن الشرك - ويؤكد هذه الحقيقة مرتين: مرة بأنه كان حنيفاً ومرة بأنه ما كان من المشركين فما بالهم هم المشركون [٣]

ويقول عز وجل ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾[٤]

والمعنى اتبعوا ملة إبراهيم لأنها داخلة فى ملة محمد ﷺ فإن قيل فما وجه قوله (ملة أبيكم) وليس كل المسلمين يرجع نسبهم إلى إبراهيم؟ قيل خاطب به العرب وهم كانوا من نسل إبراهيم، وقيل خاطب به جميع المسلمين وإبراهيم أب لهم على معنى وجوب احترامه وحفظ حقه كما يجب احترام الأب[٥]

وهذه الإطلاقات جميعها تشعر بأنه ليس ثمة فرق بين الدين الصحيح وبين الملة فى إطلاق الشرع يقول أستاذنا الدكتور عوض الله حجازى " لقد ظهر لى بعد البحث الدقيق واتضح لنا بعد المراجعة الواسعة أنه ليس هناك فرق واضح بين الدين والملة شرعاً لأن الله تعالى قد أطلق الملة على الدين الحق فى كثير من آيات القرآن الكريم"[٦] وقد استعرضنا آيات القرآن التى تبين أن الملة ترد بمعنى الدين الحق.

وإذا كان هناك من فرق بين الدين الحق والملة. فذلك الفرق لغوى لا شرعى.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٠

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٥

(٣) انظر فى ظلال القرآن ج ١ ص ١٠٩ - ١١٠ وانظر ص ٤٢٨

(٤) سورة الحج الآية ٧٨.

(٥) مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٦١٩

(٦) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ٩، ١٠

يذكر أبو هلال العسكرى فى كتابه الفروق " الفرق بين الدين والملة أن الملة اسم لجملة الشريعة، والدين اسم لما عليه كل واحد من أهلها ألا ترى أنه يقال فلان حسن الدين، ولا يقال حسن الملة وإنما يقال هو من أهل الملة ويقول دينى دين الملائكة ، ولا يقول ملتى ملة الملائكة لأن الملة اسم للشرائع مع الإقرار بالله، والدين ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنه يقرب إلى الله وإن لم يكن فيه شرائع مثل دين أهل الشرك، فاليهودية ملة لأن فيها شرائع، وليس الشرك ملة ، وقد يسمى كل واحد من الدين والملة باسم الآخر فى بعض المواضع لتقارب معنيهما[١] وهذا التوضيح من أبى هلال يضبط مصطلح الملة وإطلاقاتها. حتى يكون المرء على بينة من كلامه خاصة فيما يتعلق بمصطلحات الأديان.

ويضيف الشهر ستانى بُعداً آخر فى التفريق بين الدين والملة إذ يقول : إن الإنسان لما كان محتاجاً إلى اجتماع مع الآخرين من بنى جنسه فى إقامة معاشه والاستعداد لميعاده، وذلك الاجتماع يجب أن يكون على شكل يحصل به التمانع والتعارف حتى يحفظ بالتمانع ما هو أهله، ويحصل بالتعاون ما ليس له فصورة الاجتماع على هذه الهيئة هى الملة "[٢] فقد نظر الشهر ستانى إلى الاجتماع على هيئة أو مبدأ وأطلق عليه اسم الملة ولكنه يبين أن الملة وضعها لا تتصور إلا بوضع شارع " أى نبى " يكون مخصوصاً من الله بآيات تدل على صدقه[٣] أى أن الملة التى يجتمع عليها لابد وأن تكون على الحق.

---

(١) الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى ص ٢١٤

(٢) الملل والنحل للشهر ستانى ص ٣٨

(٣) نفسه ص ٣٨

إطلاق الملة فى القرآن الكريم على الدين الباطل

يقول تعالى ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[١] أورد السيوطى فى لباب المنقول عن الثعلبى عن ابن عباس قال : إن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلى النبى ﷺ إلى قبلتهم. فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم وأبوا أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى) ، ونلاحظ هنا أن الملة الواردة فى الآية يراد بها الدين الباطل بدليل قول الله عز وجل للنبى ﷺ فى نفس الآية ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٢]

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى فى سورة الأعراف (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شئ علما على ﴿ ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[٣] فالملة هنا استعملت بمعنى الدين الباطل ومنه قوله تعالى ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ والملة هنا يُعنى بها النصرانية كما ورد عن ابن عباس ومقاتل والكلبى أو المقصود بها ملة قريش ودينهم كما ورد عن مجاهد وقتادة[٤]

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٠ وانظر لباب المنقول فى أسباب النزول للسيوطى بهامش المصحف ص ٢٨

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٠

(٣) سورة الأعراف الآية ٨٨ -٨٩

(٤) سورة ص الآية ٧ وانظر تفسير البغوى ج ٢ ص ٧٩٧ والجلالين ص ١٣٧

إطلاقات الملة فى السنة

نأتى هنا ببعض استخدامات الملة فى السنة حتى نتبين المقصود بإطلاقاتها، ودلالاتها عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال: رسول الله ﷺ " لا يتوارث أهل ملتين "[١] فقد ذهب الجمهور إلى أن المراد بالملتين الكفر والإسلام فيكون كحديث " لا يرث المسلم الكافر"[٢]

وهناك إطلاق آخر للملة فى السنة بمعنى الدين الحق فقد وردت رواية لحديث " كل مولود يولد على الفطرة " أى على الملة بدلاً من الفطرة فى قوله ﷺ " ما من مولود إلا ويولد على الملة بدلاً من الفطرة، والدين فى قوله (فأقم وجهك للدين حنيفاً) هو عين الملة. كما يقول ابن حجر[٣]

وإطلاقات الملة فى الأحاديث التى أوردناها لم تخرج عما ورد فى القرآن أى أن الملة تأتى أحياناً بمعنى الدين الحق . وقد وردت فى السنة بمعنى التوحيد فى قول النبى ﷺ فى أذكار الصباح " أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين"[٤] فملة إبراهيم الواردة فى الحديث هى التوحيد، ودين محمد ﷺ ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً، وكلمة الإخلاص: هى شهادة أن لا إله إلا الله، وفطرة الإسلام: هى ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة وتأتى أحياناً بمعنى الدين الباطل، وقد أوردنا شواهد على ذلك.

---

(١) رواه أحمد والأربعة إلا الترمذى وأورده صاحب سبل السلام ج ٤ ص ١٥١

(٢) نفسه ج ١ ص ١٥٢

(٣) فتح البارى ٢٩٣/٣.

(٤) الحديث أخرجه أحمد ٤٠٦/٣ ، ٤٠٧ والدارمى ٢٩٢/٢ والنسائى فى عمل اليوم والليلة وابن السنى من حديث عبد الرحمن بن أبزى وسنده صحيح انظر هامش الطحاوى ص ٥٤

المبحث الخامس
النِحلَة في اللغة والاصطلاح

النحلة فى اللغة

تطلق النحلة فى اللغة على عدة معان منها :

الدعوى تقول انتحل فلان ِشْعَر فلان أو قول فلان إذا ادعى أنه قائله وتنحله ادعاه وهو لغيره.

ونحله القول ينحله نحلاً نسبه إليه ونحلته القول أنحله نحلاً إذا أضيف إليه قولاً قاله لغيره وادعيته عليه وفلان ينتحل مذهب كذا إذا انتسب إليه ، ودان به.

نحله شيئاً أعطاه من ماله وخصه به[١].

النحلة العطية ومنه قوله تعالى ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[٢] أى عطية ومنحة خالصة

النحلة الديانة والمذهب ومنه كتاب الملل والنحل [٣]

وقد وردت النحلة فى السنة بمعنى العطية ورد فى صحيح مسلم " إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا كل ما نحتله عبداً حلال " معنى نحتله أعطيته [٤]

وهذه المعانى كلها تدور حول العطية والهبة والانتساب إلى الشئ وادعائه بالحق أو بالباطل.

---

(١) انظر لسان العرب ج ٦ ص ٤٣٦٩ والقاموس المحيط ج ٤ ص ٣٣٨

(٢) سورة النساء الآية ٤.

(٣) محيط المحيط للبستانى ج ٢ ص ٢٠٤٩ وانظر الرائد ص ١٤٨٨ ، ومعجم متن اللغة ج ٥ الشيخ أحمد رضا

(٤) مسلم بشرح النووى ج ١٧ / ١٨ ص ١٩٧ باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار

النحلة فى الاصطلاح

تطلق على المذهب أو الديانة أو ما ينتسب إليه المرء من دين أو مذهب [١] أو هى: المذاهب المنشعبة عن كل دين بتعدد المجتهدين [٢] كما يقول التهانوى وقد استعمل ابن حزم النحلة بمعنى التمسك بالسنة يقول فى كتابه الفصل "وثبت بذلك عند كل منصف من المخالفين صحة قولنا أن كل من خالف دين الإسلام، ونحلة السنة ومذاهب أصحاب الحديث فإنه عارف بضلال ما هم عليه(أى اليهود والنصارى) [٣]

ثم يقول " فنحمد الله كثيراً على ما هدانا له من الإسلام ونحلة السنة واتباع الآثار الثابتة " [٤]

وابن حزم بصنيعه هذا يُعد مخالفاً لإجماع العلماء على التغاير بين الملة والنحلة والمذهب . يقول أستاذنا الدكتور " عوض الله حجازى " معلقاً على نص ابن حزم " عطف ابن حزم السنة ومذاهب أصحاب الحديث على دين الإسلام وهو فيما يبدو من عطف المترادفات ذلك أنه ليست السنة مخالفة لدين الإسلام وليس مذهب أصحاب الحديث خارجاً عنه " [٥] وهذا التغاير عند ابن حزم رأى له لا ينقض ما اشتهر بين العلماء من التغاير بين الملة والنحلة والمذهب عموما [٦]

وهذا التغاير هو ما نذهب إليه مع أستاذنا الدكتور " عوض الله حجازى " مخالفة لما ذهب إليه ابن حزم فى فصله.

---

(١) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص ١٠

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ج ٦ ص ١٣٣٩

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ٩٤ مكتبة السلام العالمية

(٤) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص ١٠

(٥) مقارنة الأديان ص ١١

(٦) نفسه

المبحث السادس

الدين فى اصطلاح الغربيين

تعريف الدين عند الغربيين

تنوعت التعريفات المقترحة للدين عند علماء الغرب تبعاً للتوجهات الفكرية التى ينتمى إليها هؤلاء الباحثون فالبعض يعد الدين ظاهرة تنبع من الفرد ومن ثمَّ صاغ التعريف على هذا الاعتبار.

والبعض الآخر عدَّ الدين ظاهرة اجتماعية ـ ووضع له تعريفاً يخدم وجهة نظره وآخرون جردوا الدين عن المعانى الغيبية ـ وألغوا فكرة الألوهية تماماً من تعريف الدين، وسوف نعرض بعض هذه التعريفات ونحاول أن نستخلص تعريفاً يجمع بين التعريفات المختلفة.

كلمة " دين " باللغة العربية تقابلها كلمة "Religion " المقتبسة من اللغة اللاتينية التى يردها معظم الباحثون إلى مادة تفيد معنى الربط الشامل لربط الأفراد ببعض الأعمال من جهة التزامهم لها وفرضها عليهم، ولربط الناس بعضهم ببعض ، ولربط البشر بالآلهة.

وكلمة "Religio " اللاتينية تدل فى غالب استعمالها على معنى الشعور بحق الآلهة مع الخشية والإجلال.

أما كلمة "Religion " الحديثة فتطلق على معان ثلاثة:

١ـ نظام اجتماعى لطائفة من الناس يؤلف بينهما إقامة شعائر موقوتة وتعبد ببعض الشعائر، وإيمان بأمر هو الكمال الذاتى المطلق، وإيمان باتصال الإنسان بقوة روحانية أسمى منه حالَّة فى الكون أو متعددة أو هو الله الواحد.

٢ـ حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائد ومن أعمال عادية تتعلق بالله.

٣- احترام فى خشوع لقانون أو عادة أو عاطفة وهذا المعنى أقدم معانى الدين[١]

تلك هى المعانى العامة لكلمة "Religion" - بمعنى الدين - ومن التعميم إلى التعريفات المحددة التى عرَّف بها الباحثون فى الغرب كلمة " الدين "

١ - يعرف " روبرت سبنسر " الدين بأنه " الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية[٢] أو هو الإحساس الذى نشعر به حينما نغوص فى بحر من الأسرار [٣]

٢- أما ماكس ميلر فيعرف الدين بأنه محاولة تصور ما لا يمكن تصوره والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه.

هو التطلع إلى اللانهائى. هو حب الله [٤].

أو هو "إدراك اللانهائى أو " اللا محدود " فى ظواهر خاصة بدرجة مؤثرة على الشخصية الأخلاقية للإنسان " [٥]

٣- أما " هيجل " فيعرف الدين بأنه " المعرفة التى تكتسبها النفس أو الروح المحدود لجوهرها كروح مطلقة " [٦]

٤- يعرف " دور كايم " الدين بأنه مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة. اعتقادات وأعمال تضم أتباعها فى وحدة معنوية تسمى الملة "[٧] وهذا التعريف سيكون لنا معه وقفة أثناء التعليق على التعريفات التى وضعها الغربيون

٥- يقول " سالمون ريناك " الدين هو مجموعة التورعات التى تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا " [٨]

---

(١) انظر الدين والوحى والإسلام ص ١٩ - ٢٠ بتصرف وانظر فى الدين المقارن ص ١٩ - ٢٠ للدكتور محمد كمال جعفر - دار الكتب الجامعية ١٩٧٠م

(٢) الدين للدكتور دراز ص ٣٤

(٣) نشأة الدين ص ٣١ د / على النشار

(٤) الدين ص ٣٥.

(٥) فى الدين المقارن ص ٢٢

(٦) نفسه ص ٢٢

(٧) الدين للدكتور دراز ص ٣٦ ونشأة الدين ص ٢٨

(٨) الدين للدكتور دراز ص ٣٦

٦ـ الدين هو الأسلوب الأساسى الذى يطبع تصرفات الإنسان وتفكيره كما أنه أقوم سبيل لانطلاق الإنسان من إسار نفسه[١]

والملاحظة التى نسجلها على هذه التعريفات هى: ـ

أولاً: أن بعض هذه التعريفات قد ضيَّق دائرة الدين تضييقاً شديداً بحيث لا يستطيع تصوره إلا فئة قليلة من البشر وهم كبار الفلاسفة والعلماء كما فى تعريف " سبنسر " وتعريف " ماكس مولر " ثم إن هذه التعريفات فردية ولا تتجه نحو تبيين عمومية الظاهرة الدينية وهذه التعريفات من الممكن أن نبنى عليها فلسفة أما الدين فلا [٢]

ثانياً: أن بعض التعريفات ركزت على الجانب العقلى والمعرفى فى الدين وأهملوا جانب العبادة والسلوك ـ كما يظهر ذلك فى تعريف " هيجل " للدين ـ

ثالثاً: أن بعض التعريفات قد ألغى الفكرة الأساسية فى الدين وهى فكرة الألوهية كما فى تعريف " سالمون ريناك " وتعريف " دوركايم.

وحجتهم أن أدياناً متعددة لا آلهة لها بل إن بعض الأديان المتحضرة لم تتحقق فيها فكرة الإله مثل البوذية والكونفوشيوسية حيث أنها تقوم على أساس أخلاقى بحت خال من تأليه كائن ما، وأن الذين يؤلهون " بوذا " " وجينا " إنما هم مبتدعون خارجون عن أصول دينهم الحقيقى القديم [٣].

رابعاً: إن كل تعريف من هذه التعريفات يركز على جانب واحد من جوانب تعريف الدين ـ أى أنه غير جامع، ولا مانع وبالجملة فهى ليست وصفاً دقيقاً للدين ـ والسبب فى ذلك أن ظاهرة التدين أكثر تعقداً وتشابكاً لجوانب عديدة من أن تعرف تعريفاً مختصراً مركزاً، ولذا يجب من البدء أن نفهم مصطلح الدين بأوسع معنى يتناسب مع استعماله التقليدى المأثور.

---

(١) انظر الدين مادة ورمزاً. ضمن آفاق المعرفة تأليف جورج هدلى ـ ترجمة فؤاد جميل. مؤسسة فرانكلين للطباعة بغداد نيويورك

(٢) الدين للدكتور دراز ص ٣٧ ـ ٣٨ ونشأة الدين ص ٢١

(٣) الدين للدكتور دراز ص ٣٨

ومعنى ذلك أن كل شيء يقع فى نطاق الديانات الفعلية عبر التاريخ يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار عند فهم المدى الذى يتسع له هذا اللفظ كما يجب ألا نغفل فى هذا الصدد أى عنصر نعتقد أهميته فى الارتباط بهذه الظاهرة الجليلة .[١]

خامساً: نتوقف بوجه خاص عند تعريف " دور كايم " الذى ذهب إلى استبعاد فكرة الألوهية عن الدين وتعريفه ـ وهنا نتساءل ـ هل الأديان التى عددها " دور كايم ـ خلت فعلاً عن فكرة الألوهية؟ هذا من ناحية ومن ناحية أخرى هل إذا خلت المعتقدات عن فكرة الألوهية يصح أن تسمى أدياناً؟

إن الإجابة عن التساؤل الأول ـ تتمثل فى إجماع مؤرخى الأديان على أنه ليس هناك جماعة إنسانية بل أمة كبيرة ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره ، وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه ودون أن تتخذ فى هذه المسائل رأياً معيناً. حقاً أو باطلاً. وما ذكره " دور كايم " من أن بعض الأديان خلت عن فكرة الألوهية ـ هذه الأديان لم تشذ عن القاعدة التى أجمع عليها مؤرخو الأديان.

أما الإجابة عن التساؤل الثانى: فإن اصطلاح الناس على تسمية العقائد التى خلت من فكرة الألوهية ديناً فهذا اصطلاح مجاف لذوق اللغات خارج عن معهود الناس لأن هذه الأفكار الأجدر أن يطلق عليها فلسفات لا أديان ـ على أن الديانات التى ذكرها " دور كايم " عُرفت ودُرجت فى جدول الأديان لأن فى ثناياها فكرة التأليه ـ [٢] وعلى أقل تقدير كانت فى بدايتها مؤلهة وإن أنكر الأتباع فيما بعد الألوهية .

سادساً: إن العناصر الرئيسة التى يجب أن يتكون منها الدين كما حددها الدكتور دراز تتمثل فى : ـ

١ - عنصر الذات

---

(١) فى الدين المقارن ص ٢٤

(٢) انظر الدين ص ٣٩ ـ ٤٠ بتصرف

٢ - عنصر الغيبية

٣ـ عنصر الروحية

٤ـ عنصر الاتصال بالعابدين

وبعد أن حدد تلك العناصر الأربعة انتهى إلى تعريف الدين بأنه " الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة "[1] والذات الجديرة بالطاعة والعبادة هى الذات الإلهية بأوصافها التى وردت فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة أى هى ما جاء بها الإسلام عن طريق الوحى إلى محمد ﷺ.

(١) الدين للدكتور دراز ص ٤٩ بتصرف

الفصــل الثانى

مصدر الدين وبواعث التدين عند الغربيين



المبحث الأول

دعوى أن الإنسان هو مصدر الدين

هل الدين أمر فطرى فى الإنسان وُلد مزوّدًا به ؟ أو أن الدين عرض طارئ استحدثه الإنسان؟ وقبل أن نجيب على هذه التساؤلات ينبغى أن نقرر بداية لماذا تطرح هذه التساؤلات وما قيمة الإجابة عليها ؟

ونبادر فنقول: تكمن قيمة طرح هذه الأسئلة، والإجابة عنها فى أن كثيراً من الباحثين المحدثين تعالت صيحاتهم معلنة أن البحث فى أصل الدين له أهميته ونتائجه الحاسمة. لأنه إذا أمكن البرهنة على أنه من أعلى أى موحى به من عند الله. فإن ذلك يوثق صحته، ويثبت حقيقته وفرض إلزامه (وأرى أنه لن يستفيد دين من الأديان الموجودة الآن من البحث فى أصل الدين مثلما يستفيد الإسلام لأنه الدين الوحيد الآن الذى يمكن إثبات أنه وحى من عند الله وأنه الوحيد موثوق الصحة ، والذى يمكن البرهنة عليه دينياً وعلمياً. عكس الأديان الأخرى الكتابية أو الوضعية. ومن ثمَّ فإن البحث فى أصل الدين تكمن أهميته فى نظرنا أنه يدلك على أن الدين هو الإسلام) وإذا أمكن البرهنة على أن الدين من أسفل (أى من وضع البشر أفراداً وجماعات) فهو فى هذه الحالة إنتاج بشرى شأنه شأن غيره من الأفكار والمخترعات القابلة للخطأ أو للصواب ، وقد ينتهى الأمر فيه إلى أنه أمر لا يوثق به وليس له سلطة الإلتزام[1]. ونحن انطلاقاً من هذا نتناول الاتجاهات الرئيسة فى هذا الموضوع ونستطيع أن نضع أيدينا وسط الكم الهائل من الآراء والمقولات حول مصدر الدين على اتجاهين رئيسيين [2] : وسوف نتحدث عن أحدهما.

---

(١) فى الدين المقارن ص ٢٤

(٢) فى الدين المقارن ص ٢٤

وهو القائل بأن الدين مصدره الإنسان وهذا ادعاء الغربيين الذين سوف نعرض رأيهم فى هذا المبحث، ونرجئ الحديث عن الاتجاه الآخر إلى الفصل الثالث إن شاء الله.

هذا الاتجاه يمثله مجموعة من الباحثين الغربيين وتقوم حجتهم على أن الإنسانية لابد وأن تكون قد عاشت قروناً طويلة فى حياة مادية خالصة قوامها الحرث والنحت والبناء والحدادة والنجارة قبل أن تفكر فى مسائل الدين والروح بل قال أحدهم وهو " فولتير" : إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون من القساوسة والكهنة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء(١)

وهذا الرأى الحديث من أمثال " فولتير " سبقه به جماعة من السوفسطائيين الذين نظروا بسخرية إلى الدين والقانون فقديماً زعم السوفسطائيون " أن الإنسان كان فى أول نشأته بغير رادع عن قانون، ولا وازع من خُلُقٍ وأنه كان لا يخضع إلا إلى القوة الباطشة ثم وضعت القوانين فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة فهناك فكر بعض العباقرة فى إقناع الجماهير بأن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شئ وتسمع وتهيمن بحكمتها على كل شيء "(٢)

وإن أصحاب هذا الاتجاه على اختلاف مشاربهم قديماً وحديثاً يجمعهم رأى واحد هو أنهم لا يرون مصدراً للدين خارج هذا العالم الحسى ومن الطبيعى أن يجمع هؤلاء على إنكار الألوهية كحقيقة موضوعية ذات وجود فعلى ثابت شامل ومستقل كما يجمعهم القول بالتطور فى الديانات(٣)

يقول رالف لنتون " إن عقيدة القادر المطلق فى نهاية الأمر الذى لا يرضى إلا بالطاعة الكاملة والوفاء كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامى لقد خلق هذا النظام جبروتاً غير عادى، وكانت لنتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم مفصلة عن

---

(١) فى الدين المقارن ص ٢٤

(٢) نفسه ص ٨١

(٣) فى الدين المقارن ص ٤٨

المحرمات فى كل مجال من الحياة الإنسانية، وقد آمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين يتقلبون أحكام آبائهم العمياء، ويطيعونها وما التصور الإلهى (اليهودى) إلا خيال مثال لأب سامى . مع شيء من المبالغة والتجريد فى الأوصاف والطاقات "(١)

ونلاحظ هنا أنه يتحدث عن الدين اليهودى كنموذج وإلا فهو يرفض جميع الأديان ويعتبر أنها من صنع الإنسان أو المجتمع - المهم أن الدين ليس من عند الله - كما يزعم.

ويذهب البعض إلى أن العوامل التاريخية كانت أحد الأسباب الرئيسة التى جعلت الإنسان يخترع الدين - ويفترض قوى خارجية يلجأ إليها عند الحاجة - وهذه القوة هى الإله - اخترع ليجتمع الناس حوله ويهرع الجميع إلى رضاه.

يقول " جوليان هكسلى " : لقد خلق العقل الإنسانى الدين، وأتم خلقه فى حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية (٢) ويضيف قائلاً " فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته، وهذه البيئة قد فات أوانها أو كاد، وقد كانت هى المسئولة عن هذا التعامل فأما فناءها وانتهاء التعامل معها فلا داعى للدين (٣) ويذهب إلى أبعد من هذا حين يقول : لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا وهى لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات. لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين جاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية ثم بالعقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة الإله الواحد. وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته، ولا شك أن هذه العقائد كانت فى وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور " (٤).

إنه كإخوانه فى الغى ينكر أن يكون الدين من عند الله ويؤكد أنه من صنع الإنسان ويجمع كل مظاهر الدين. ويلغيها بكلمة واحدة وعلى الرغم من أن الدين

---

(١) نقلاً عن الإسلام يتحدى ص ٣٧ Tree of culture , Ralphlinton
(٢) الإسلام يتحدى ص ٣٨
(٣) نفسه
(٤) انظر الإسلام يتحدى ص ٣٨ـ ٣٩

من صنع الإنسان إلا أنه كان مناسباً فى مرحلة معينة أما وقد تطور المجتمع فَقَدَ فَقَدَ الدين ضرورته فى الوقت الحاضر وسوف يكون لنا وقفة مع هذا الادعاء على صفحات هذا البحث إن شاء الله.

وإذا كانت هذه الأقوال آراء لبعض الملحدين ـ يعلنونها للناس ويكتبونها فى مؤلفاتهم ـ فإن الأمر الأدهى والأمر أن تقوم دول على هذه الأفكار وتتبنى هذه الآراء. يقول " إنجلز " فيلسوف الشيوعية " فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة فى الأساس الذى نمونا عليه نحن الناس نتاجها أيضاً، وخارج الطبيعة والإنسان لا يوجد شئ أما الكائنات العلوية التى ولدت فى مخيلتنا الدينية فليست سوى انعكاسات خيالية لوجودنا نحن "(١)

أما السبب فى ترويج مثل هذه الآراء وانتشارها وقيام دول على أساس منها فمرده إلى بعض الأمور منها:

١ـ القدوة غير الحسنة والانحلال الخلقى عند رجال الكنيسة. إضافة إلى الاضطهاد الدينى الذى مارسه رجال الكهنوت ضد العلم وأصحابه.

٢ - ظلم القوانين الوضعية، وسوء توزيع الثروة العامة التى منحها رجال الدين لأنفسهم بغير وجه حق(٢).

كل هذه الأمور وغيرها الكثير أدى إلى تلك الآراء وشيوعها إضافة إلى أمر نحسبه جوهريًا يتمثل فى الغرور الذى صاحب الاكتشافات العلمية إذ ظن المخترعون وأفراد المجتمع على السواء أنهم وضعوا أيديهم على الحقيقة متمثلة فى الاكتشافات العلمية بعيداً عن الدين وتكاليفه.

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ٢٧٢ وانظر ص ٢٩٣ وما بعدها

(٢) أنظر الدين للدكتور دراز ص ٨٠، وفى الدين المقارن للدكتور كمال جعفر ص ٤٩وانظر المعالجة القيمة لفساد الكنيسة ورجال الدين فى مذاهب فكرية معاصرة ص ٣٥ـ ٧٨

المبحث الثانى

البواعث على التدين عند القائلين بأن الإنسان مصدر الدين

يجب أن نفرق بين مصدر الدين ، وبين الباعث على الدين. فمصدر الدين عند أصحاب هذا الاتجاه هو الإنسان نفسه ومن ثمَّ فإن كثيراً من هؤلاء ينكرون الألوهية ويرفضون ما وراء الطبيعة والمادة، ويرون أن الإنسان نشأ على الأرض وكان تطويراً وارتقاءً طبيعياً للخلية الأولى التى انتهت إلى فقاريات راقية كالقرود والنسانيس ثم الإنسان [١]

وهؤلاء لهم مذاهب شتى فى الباعث على التدين سوف نتعرض لأهمها على الصفحات القادمة إن شاء الله.

(١) الإنسان فى ظل الأديان ص ٤٢

أهم النظريات فى تفسير الباعث على التدين وتشمل المسائل التالية:

المسألة الأولى: نظرية المذهب الطبيعى

يرى أنصار هذا المذهب أن الباعث على التدين لدى الإنسان مظاهر الطبيعة من حوله وقد انقسموا إلى فريقين فريق ذهب إلى أن الذى دفع الإنسان إلى التدين

أ- التعظيم للطبيعة الناتج عن التأمل فيها

وحجة هذا الفريق أن الطبيعة بمظاهرها المختلفة بما لها من قوة مستقلة عن إرادة البشر يخضع الجميع لها، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها فيجتمع للإنسان القديم شعور مؤلف من دهشة وإعجاب رأى به الكون أشبه شيء بالمعجزة[1]

ومن أصحاب هذا الرأى " ماكس موللر " الذى أيد وجهة نظره بدراسة الفيدا الهندية حيث أن أسماء الآلهة إنما هى أسماء مشتركة من الممكن ببساطة التوصل إلى أصلها اللغوى، وتعنى كلها ظواهر الطبيعة الرئيسة ومن الأمثلة على ذلك كلمة Agnl وهو اسم أحد الآلهة الرئيسيين لم يكن لهذا الاسم أول الأمر أية دلالة دينية بل كان يشير فقط إلى فعل النار المادى كما تدركه الحواس، والذى يدل على أن هذا المعنى كان بدائياً أننا نجده فى اللغات الهندية الأوربية ففى اللاتينية " Ignis " وفى الليتوانية " Ugnis " وفى السلافية القديمة " Ogny " وكل هذه الكلمات متصلة بكلمة " Agnl " فى رأى " ماكس موللر "

أما ما تعبر عنه " Dyaus " فهو الشمس المتلألئة، ومعنى هذه الكلمة وغيرها من الكلمات يدل على أن أول عبادة إنما اتجهت إلى عبادة الطبيعة فى قواها وعناصرها المختلفة. فكانت القوى والعناصر الطبيعة أولى الأشياء المؤَلّهة، وهكذا بدأت الإنسانية دينها[2]

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ١١٤

(٢) انظر نشأة الدين ص ٧١ ـ ٧٢ للدكتور النشار وانظر كتاب الله فى نشأة العقيدة الدينية للعقاد ص ١٧ ـ ١٨

بـ الباعث على الدين الخوف من مظاهر الطبيعة

ذهب إلى هذا الرأى جيوفنس " Jovons " حيث رأى أن النظر فى مشاهد الطبيعة كان على الجملة هو منشأ العقيدة الإلهية ولكنه يقرر أن الظواهر العادية لم تكن كافية لإيقاظ فكرة التدين. نظراً لأن تكرارها على الحواس تجعل النفس تألفها، ولكن الطبيعة المفاجئة مثل الزلازل، والبراكين والطوفان، والصواعق هى التى دفعت الإنسان إلى التدين بما هو مفطور فى غريزته استحالة أن يحدث شيء من لا شئ إلى درجة أن الطيور والحيوانات فضلاً عن الإنسان تفزع عند سماع صوت مزعج ، وتلتفت إلى الصوت المزعج بحثاً عن فاعله أو مصدره. فكان من الطبيعى أن هذه الحوادث الرهيبة المفزعة تُزعج من يشهدها وتحفزه إلى السؤال عن مصدرها وإذ كان لا يرى لها سبباً ظاهراً اضطر عقلياً أن ينسبها إلى سبب خفى ذى قوة هائلة [١] هذه القوى الطبيعية بمظاهرها المختلفة ومن ثمَّ انبعث ولاء الإنسان لقوى أو كائنات خافها أو ظنها قادرة على دفع الخوف والرهبة من نفسه فحرص على التقرب لها ليتقى شرها، ويضمن نفعها ويستدر عطفها عليه فأصبحت قوى الطبيعة وكائناتها آلهة تُعبد. ما ينفع عبده وما يضر عبده ليأمن أذاه " ويتقى شره.

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ١٢٦

المسألة الثانية

نظرية المذهب الحيوى Amimisme

تعرضت نظرية المذهب الطبيعى أو الكونى فى الباعث على التدين إلى النقد من جانب كثير من الباحثين ورفضوا هذا المذهب الطبيعى. وذهبوا إلى أن الدافع على التدين هو المذهب الروحى. وقد ذهب إلى هذه النظرية " تيلور " فى كتابه " المدنية البدائية " وتابعه عليها مع تعديل طفيف الفيلسوف الإنجليزى " سبنسر فى كتابه مبادئ علم الاجتماع " ومفاد هذه النظرية :

١ـ أن فى الوجود كائنات عاقلة سواء أكانت فى الأصل أرواحاً إنسانية انتقلت عن أبدانها أم كانت منذ بدايتها أرواحاً مستقلة كالجن والملائكة أم كانت أرواحاً أعلى من ذلك وأسمى.

٢ـ أن هذه الكائنات الغيبية المزودة بتلك القوى الخارقة قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية ، وتترك فيه أثراً من آثارها العجيبة هكذا تنشأ عقيدة التأليه التى تمت على مرحلتين :ـ

الأولى: فى بقاء أرواح الموتى. وهذه الفكرة تعتمد فى جوهرها على تجربة الأحلام ، والتفسير البدائى. لهذه التجربة خلاصته أن الحلم عند البدائيين انتقال حقيقى لروح الشخص المرئى فى المنام فيراه حقيقة على شكل طيف.

وإذا كانت أرواحهم تجئ إلى الرائى فى المنام كما تجئ أرواح الأحياء دل على بقاء أرواح الموتى واستمرار اتصالها بالأحياء وتمكنها من نفعهم وضرهم فاقتضى الأمر التقرب إليها لتجنب أذاها واستدرار عطفها.

أما المرحلة الثانية : وهى عبادة أرواح الكواكب والعناصر الطبيعية فيرى " تيلور " أن العقلية البدائية فيها من السذاجة الطفولية ما يجعلها لا تميز بين الجماد والحيوان ، ويجعلها تعامل كلاً منهما معاملة الكائنات الحية كما يداعب الطفل دميته ويناجيها كأن فيها روحاً. بينما رأى " سبنسر " أن القدماء عبدوا الطبيعة لأن الأسلاف كانوا

يُسمون أحياناً بأسماء مظاهر الطبيعة فكان بعضهم يُسمى نجماً، والآخر نمراً، والثالث حجراً ثم بعد ذلك انتقل التقديس من أصحاب تلك الأسماء إلى الأشياء المسماه بتلك الأسماء نفسها [١]

يقول برجسون " والواقع أن الطبيعة قد وهبت الإنسان ملكة خاصة تشبه الخيال من بعض الوجوه تلك هى الوظيفة الأسطورية أو الملكة الخرافية التى بمقتضاها يستطيع الإنسان أن يخترع شخصيات خيالية هذه الشخصيات قد تكون (أرواحاً) بادئ الأمر ثم تتحول إلى آلهة فيما بعد "[٢]

(١) نشأة الدين ص ٣٣ ـ ٣٦ ـ ٣٧ وانظر الدين للدكتور دراز ص ١٣٣
(٢) الإنسان فى ظل الأديان ص ٣١

المسألة الثالثة: مذهب الطوطم (Totem)[١]

ذهب إلى هذه النظرية عالم الاجتماع الفرنسى " دور كايم " ومفاد هذه النظرية أن فى معظم القبائل الاسترالية نظاماً له أهمية عظمى فى الحياة الاجتماعية وهو

" العشيرة " هذه العشيره مرتبطة ليس برباط الدم أو المصاهرة أو غيرها، وإنما بإطلاق اسم واحد عليهم، وهذا الاسم هو نوع معين من الأشياء المادية تعتقد العشيرة أن لها به أوثق الصلات ويسمى هذا النوع " الطوطم " و " طوطم " القبيلة هو " طوطم " كل فرد من أفرادها ولكل عشيرة طوطمها الخاص بها. أو الأشياء التى تستخدم " طواطم " فهى فى معظمها متصلة بأنواع نباتية أو حيوانية. وهى الأشهر أما الأشياء الجمادية فإن القائمة التى قدمها الذين دللوا على هذه النظرية خلت من الرموز الجمادية إلا عدداً ضئيلاً جداً يحمل أسماء حيوانية أو نباتية[٢]

" والطوطم " الذى تتخذه العشيرة ليس فرداً إنما هو نوع أى نوع الحيوان على العموم وكان الطوطم الذى تتخذه العشيرة شعاراً لها يرسم على كل الأمتعة التى تستخدمها العشيرة بل كانوا يحملونه معهم إلى القتال ويدافعون عنه أعظم دفاع.

وهذه الطواطم سواء من النباتات أو الحيوانات.. كان تقديسها يؤدى إلى تحريم أكلها اللهم إلا فى بعض الأكلات الدينية، وأن من يقدم على هذا فجزاؤه الموت، لأنه كان يعتقد أن هذه الطواطم يسكن فيها عنصر هام لا يمكن أن يدخل فى المكان

---

(١) هذا الاسم مأخوذ من لغة الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية هو اسم لم يتفق بعد على ضبطه ولا تحديد معناه فهو فى المشهور To tem ولكن يكتب أيضاً Totam أو Toodim أو dodaim أو Ododaim ويفسر تارة بمعنى موطن العشيرة ومستقرها وتارة بمعنى العلامة أو الشعار . انظر الدين للدكتور دراز ص ١٥١

(٢) نشأة الدين ص ١٠٠ ، ١١٤ ، ١١٥ والدين للدكتور دراز ص ١٥١

غير المقدس إلا إذا أعطيه وقضى عليه، وإن كانت بعض العشائر أباحت لأفرادها الذين بلغوا سناً معيناً أكل تلك النباتات والحيوانات [١]

ويبدو أن تحريم أكل هذه الحيوانات إنما هو تحريم شكلى لأن ترخيص أكله فى بعض الأحوال ثم توسيع نطاق هذا الترخيص سيوسع بالتالى من دائرة الإباحة لأنها الأصل كما يرى " سبنس،ر وجلين " اللذان اعتبرا أن هذه التحديدات والنواهى طارئة على المجتمع الطوطمى[٢] ولكن التساؤل هنا هل يمكن أن نرى فى الطوطمية مذهباً فى الوجود يحاول تفسير الكون أو بمعنى أدق: هل الطوطمية هى تلك العقائد الخاصة الضيقة التى لا تتناول سوى الرمز الطوطمى.. والنبات والحيوان الذى تشير إليه الرموز. ثم أفراد العشيرة؟

إن مجموعة العقائد المتنافرة أو الجزئية لا يمكن أن تكون ديناً بمعنى الكلمة لأن الدين الحقيقى هو ما يحاول الإحاطة بالكون كله وأن يضع تصوراً عاماً له. وتلك هى المحاولة التى أرادها " دور كايم " حين أراد أن يجعل من الطوطمية مذهباً فى الوجود ديناً يفسر الكون وهو فى هذا يُشبه الطوطمية بأى دين آخر من الأديان التى قامت بهذا العمل[٣]

بل يذهب البعض إلى أبعد من هذا حين يعتبرون أن الطوطمية تمثل أصلاً للأديان بين البدائيين والهمج مستندين إلى ما تحقق من أن شعائر الطوطم منتشرة بين مئات القبائل الهمجية فى استراليا وأفريقيا وأمريكا وبعض المناطق الأسيوية[٤]

أما " تايلور وويلكن " فقد ذهبا إلى أن الطوطمية قد نشأت عن عبادة الأرواح التى كان السلف محوراً لها وكانت موضع تقديس الخلف وعبادتهم، وكانت فى مبدأ الأمر قائمة بذاتها منفصلة عن الأجسام ثم أخذ الاعتقاد بتناسخ الأرواح يتداخل شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر ببعض الشعوب البدائية إلى

---

(١) نشأة الدين ص ١١٥ وانظر مصطلح الطوطمية فى الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب ملحق ـ معجم المصطلحات ص ١٠٩٩ـ ١١٠٠ وضع الأستاذ حمدى عبيد

(٢) نشأة الدين ص ١١٥

(٣) نفسه ص ١٢٦

(٤) الإنسان فى ظل الأديان د. عمارة نجيب ص ١١٤

الظن بأن هذه الأرواح قد حلت فى أجسام بعض من الآباء والأجداد واتجه إليها التقديس [١]

وقد أيد هذان الباحثان نظريتهما بما لاحظوه فى بعض جزر أندونسيا من تقديس الناس للتماسيح هناك [٢]

أما " جيفونس " فيذهب إلى أن الطوطمية قد انبثقت عن عبادة مظاهر الطبيعة وذلك أن الإنسان البدائى تحت تأثير الخوف والرهبة من مظاهر الطبيعة من حيوان ونبات وجماد حرص على التقرب إلى بعضها ليتقى شرها ويضمن نفعها ويستدر عطفها عليه ولم يكن ثمة وسيلة أقوى من القرابة فأعضاء العشيرة الواحدة يتعاونون لأنهم أقرباء أو لأنهم يعتبرون بعضهم بعضاً سواء ولذلك اصطنع العقل البدائى صلة قرابة بينه وبين بعض مظاهر الطبيعة ولم يُقم هذه الصلة بين أفراد وأفراد ، وإنما أقامها بين العشائر الإنسانية من جهة والفصائل الحيوانية والنباتية والطبيعية من جهة أخرى. لقد نظر البدائى إلى عالم الحيوان والنبات نظرته إلى عالم الإنسان فلم يعتد بأفراد هذا العالم وإنما اعتد بفصائله وأنواعه وعمد إلى هذه الفصائل والأنواع فربطها بعشائرها بوشيجة القرابة ولُحْمَة النسب [٣]

ومن عجيب الأمر أن تقديس الطوطم لا يزال حتي الآن له وجود بين القبائل الاسترالية الأصلية وبين المجتمعات الوثنية بماليزيا وأيضاً بين الهنود الحُمر بالساحل الشمالى الغربى فى أمريكا. ويذكر بعض الباحثين أنه لازالت إلى الآن توجد آثار منه فى أوربا والدليل على ذلك تسمية مدينة بيرن (Berne) فى سويسرا حيث تعظم الفيلة وكلمة بيرن فى الألمانية جمع بير بمعنى فيل [٤]

كانت هذه أهم النظريات التى تحدثت عن الباعث على التدين عند الإنسان بعد أن قررت أنه مصدره. وهناك بعض الاتجاهات الأخرى أقل شهرة من التى قبلها. نتحدث عنها إجمالاً بكلمة موجزة.

---

(١) انظر الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافى نقلاً عن الإنسان فى ظل الأديان ص ١١٨

(٢) انظر نشأة الدين د/ على سامى النشار ص ١٤٦

(٣) انظر الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافى ص ٩٥ وما بعدها نقلاً عن الإنسان فى ظل الأديان ص ١٢١ و انظر نشأة الدين للدكتور على سامى النشار ص ١٥٠ ـ ١٥١

(٤) انظر معجم المصطلحات الملحق بالموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب ج ٢ ص ١١٠٠ وضع الأستاذ حمدى عبيد.

بعض الاتجاهات الثانوية التى تحدثت عن الباعث على التدين

١ـ الشعور بالحب

هذا الاتجاه يقرر أصحابه أنه ما دام أن التدين مصدره شعور الإنسان فإن اللائق أن يكون هذا الشعور متعلقاً بالحب لأنه المعين الذى لا ينضب فى الحياة الدينية، وهو الذى يفسر التضحيات والأعباء التى يتحملها المتدينون، ومعنى ذلك أن الغريزة الدينية ـ على فرض وجودها تتضمن كل المقومات التى تدفعها نحو الوجود الإلهى ـ لأن الحب ليس إلا تعبيراً عن نزعة أكيدة، ورغبة مُلِحّة فى داخل الإنسان ذاته، وهذا ما جعل بعض الباحثين فى الأديان يعتبرون أن الدين فى كل صورة ينتهى أخيراً إلى الميل والشوق إلى الله والدأب فى البحث عنه وأن الحق الذى ترثه كل الأديان يتمثل فى هذه الحقيقة الكبرى وهى أن الكل يبحث عن الله، وأن الصور المختلفة للأديان تدرك غاية الدين بدرجات مختلفة[١]

٢ـ الاتجاه النفسى

ومفاد هذا الاتجاه أن الباعث على الدين عند الإنسان شعوره بمناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته، وهما اللتان تتألف منهما حياة النفس فى أيسر مظاهرها. إن قدرنا قد رسم دون استشارتنا فقضى علينا أن نكون فى زمن معين، ومكان معين وترك لنا ميراثا من الملكات والطبائع لم يكن لنا فيه شيء من الاختيار؟ بل إننا لا نجد فى أنفسنا، ولا فى أى مجموعة أخرى من الكائنات الفردية السبب الكافى لوجودنا، ولا غايته النهائية المعقولة ولذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نبحث عن هذا السبب ، وهذه الغاية خارجاً عنا فى الوجود العام وما التدين إلا الاعتراف بهذه التبعية فى تسليم وخضوع هذا الشعور بالتبعية هو الأساس التجريبى للعقيدة الإلهية، ومهما تكن فكرة الألوهية فى عقولنا ناقصة غير محدودة فإن موضوعها لا يفلت قط من شعورنا. فهو حاضر لدينا. بل يفرض نفسه علينا فى هذا الشعور حتى

---

(١) انظر الدين المقارن ص ٣٥ ـ ٣٨

إنه يسوغ لنا أن نضع هذه المعادلة الحسابية مطمئنين. إن شعورنا بالتبعية المطلقة هو شعورنا بحضور السر الإلهى فينا. هذا هو الينبوع العميق الذى تفيض منه الفكرة الإلهية بقوة لا تقاوم[١]

وأخيراً كانت هذه الآراء ملخص الاتجاهات التى ذهبت إلى أن الإنسان هو الذى صنع الدين على اختلاف فيما بينهم حول الباعث على التدين إن من جهة الطبيعة رغبة أو رهبة أو من جهة الأحلام التى يراها الإنسان والذى أخذ منها باعثاً على التدين - أو من جهة الشعور بالحب كباعث دفع الإنسان إلى التدين - أو الإتجاه الأخير الذى يستند على الشعور النفسى.

---

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ١٣٥ - ١٣٨

تأثر بعض المفكرين فى العالم الإسلامى بالقول بالتطور فى العقيدة

نلاحظ أن الفكرة التى تجمع هذه المذاهب الغربية جميعها ـ على الرغم من اختلافهم ـ هى فكرة التطور أى أن الدين لم يكن . ثم اخترعه الإنسان بادئاً بالتعدد فى المعبودات منتهياً إلى التوحيد.

وينبغى أن نلاحظ أن التوحيد الذين ذهبوا إليه ليس هو التوحيد الذى جاء به الأنبياء ، وإنما توحيد المعبودات القديمة فى معبود واحد.

ويُعدُون هذا من التطور العقلى الذى وصل إليه الإنسان.

وقد انتقلت هذه الآراء إلى العالم الإسلامى وتأثر بها بعض الباحثين. نعم خالفوا الغربيين فى أن المعبود الواحد هو ما جاء به الأنبياء ودعوا إليه. يقول الأستاذ " سليمان مظهر " فى كتابه قصة الديانات " جاء وقت اعتقد فيه الإنسان أن للأصنام قدرة إذا تقدم لها بقربان على أن تفعل له الخير وتلحق الضرر بأتباعه، ولكنه مع مرور السنين بدأ يتصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة الآخرون ينظمون الحياة على وجه الأرض وتباينت صور هذا الخالق فى أذهان البشر حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد أو رب الأرباب أو كبير الآلهة

ومنهم الأستاذ " طه الهاشمى " فى كتابه تاريخ الأديان وفلسفتها " على ما يذكر الدكتور عوض الله حجازى [١]

ومنهم الأستاذ " العقاد " فى كتابه "الله " يقول " يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائيه فى اعتقادها بالآلهة والأديان هى :ـ

١ـ دور التعدد	Polytheism
٢ـ دور التمييز والترجيح	Henotheieism
٣ـ دور الوحدانية	Monotheism [٢]

---

(١) انظر مقارنة الأديان ص ٣٨

(٢) الله كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية ص ٢٨.

ويذكر عن دور الوحدانية (أن الأمة تجتمع على عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة ، ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع[١]

ويواصل انتصاره لهذا الرأى بقوله " ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت سائغة فى عقول الهمج ، وقبائل الجاهلية فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة"[٢]

ويؤكد فكرة التطور بقوله " فالتطور فى الديانات محقق لا شك فيه ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات بل كان على سلالم مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من أخرى "[٣]

ثم يقول " فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ما تقع عليها العين. وتعلل به الخليقه والحياة فإذا دخلت هى أيضاً فى عداد المعلومات فقد أصبح الكون كله فى حاجة إلى خالق موجد للأرض ، والسماء ، والكواكب ، والأقمار وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ [٤]

وسوف نناقش دعوى الأستاذ العقاد بالتفصيل فى مسألة مستقلة ضمن المبحث الثانى.

---

(١) نفسه ص ٢٨

(٢) نفسه ص ٢٩

(٣) نفسه ص ٣٢

(٤) سورة الأنعام الآيات ٧٦ ـ ٧٩ وانظر الله ـ كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية ص ٣٦ ، ٣٧.

المبحث الثانى

تقويم المذاهب الغربية فى مصدر الدين والباعث عليه

وسوف نناقش هذه الاتجاهات وندحض ما ذهبوا إليه من أن الدين مصدره الإنسان وأن الباعث عليه ما زعموه فى المسائل التالية :

المسألة الأولى: مناقشة أصحاب المذهب الطبيعى:

من الملفت للنظر أن الذى فند آراء أصحاب هذا الاتجاه ثُلَّةٌ من الغربيين وكانوا على المستوى الفكرى والعلمى لأصحاب المذهب الطبيعى إن لم يتفوقوا عليهم. ـ ولكن نقد هؤلاء لأولئك ـ كان القصد منه إبطال وجهة نظر الخصم ليخلص الناقد إلى إثبات ما ذهب إليه هو، ويبدو هذا واضحاً فى نقد "دور كايم"للمذهب"الطبيعى" "والحيوى" كباعثين على التدين وإبطالهما لإثبات صحة ما ذهب إليه من أن الدين من اختراع العقل الجمعى متمثلاً فى الطوطم ونستطيع أن نجمل أهم ما وُجه إلى المذهب الطبيعى من نقد فى النقاط التالية :

١ - إن ما استند عليه أصحاب المذهب الطبيعى بعد دراستهم للفيدا الهندية وملاحظاتهم حول وجود أسماء الآلهة بأسماء مظاهر الطبيعة كالشمس، والنار، والتشابه بين هذه الأسماء ومظاهرها عند كثير من الأمم الأخرى كما ذهب "ماكس موللر" لقد انبرى جماعة للرد عليه فيما ذهب إليه، وأثبتوا أن أصول الكلمات التى زعم "موللر" تشابهاً بينها وبين غيرها فى الديانات الأخرى لم توجد منفصلة على الإطلاق بشكل يدل على أنها قائمة بذاتها، وإذا كان الأمر كذلك يعد من الممكن أن تكون هذه الأصول للغة البدائية للهنود، الأوربيين فقد نشر Oldemlurg أبحاثه عن الفيدا فى كتابه La/ religion/ du/ /vead ـ وحاول أن يثبت أن آلهة الفيدا ـ إن كانت ثمة آلهة فيها ـ لا تحقق فيها

الصفة الطبيعية التى ينسبها إليها "موللر"(١) وهذا النقد قائم على البحث والدراسة والاستقصاء الأمر الذى يجعل قبوله أولى من كلام "ماكس موللر"

٢ـ لو كان مبعث العقيدة هو مظاهر الطبيعة ، وهدف العبادة هو استرحامها لما استمر الإنسان على تدينه بعد ما ظهر له عدم استجابة الطبيعة؟ والحاصل أن الديانات لم تنقطع ولن تنقطع. فلابد أن يكون لها منشأ وهدف آخر ثم إذا سلمنا جدلاً بعبادة الطبيعة للانبهار بها والوقوف أمام مظاهرها فكيف نفسر عبادة الأحجار والأشجار والحيوانات والأشياء التافهة التى لا توحى بهذا الشعور(٢) ثم إن الذين ذهبوا إلى أن مظاهر الطبيعة وتأمل الإنسان لها هو الذى دفعه على التدين. قول يحتاج إلى نظر فإن رتابة الطبيعة لا تولد إلا إحساسات مؤقتة ولا يمكن أن تُعد أساساً لمذاهب ثابتة وطقوس دائمة هذا من ناحية، ومن جهة أخرى هل الإنسان البدائى كانت عنده المقدرة الفكرية والتأمل فى تلك المظاهر واستكشاف العجائب فى هذا النظام

٣ـ أما القول بأن الإنسان عبدها خوفاً منها يقول " " ساباتييه " إن شعور الرهبة والخوف من القوى العلوية لا يكفى وحده لتفسير الفكرة الدينية ولابد له من شعور آخر يوازنه ويلطف من حدته ذلك أن الخوف إذا استأثر بالنفس سحق الإرادة، وشل الحركة، وولد اليأس ومن وقع فريسة للرعب إن لم يتصور إمكان الخلاص لم يفكر فى البحث عن عون ينقذه من الخطر الذى وقع فيه.فلابد لتحقيق الشعور الدينى من مقاومة الخوف والرهبة بما يعادلهما من الأمل والرجاء اللذين يبعثان على الدعاء والتضرع (٣)

هذه هى أهم ما وُجه من انتقادات إلى النظرية الطبيعية التى ذهب أصحابها إلى أنها الدافع على التدين. وينبغى أن نلاحظ أن فكرة الخوف فكرة رئيسة فى الأديان الكتابية ، والإسلام ملئ كتابه بالآيات التى تخوف العباد وتحذرهم مع مراعاة الفرق

---

(١) نشأة الدين ص ٨١/٨٠

(٢) الدين ص ١١٩

(٣) الدين للدكتور داراز ص ١٢٦/ ١٢٧

الشاسع بين الخوف الذى تمليه الطبيعة كقوة غاشمة ليس لها هدف ولا غاية، ولا نفع ولا ضر، وبين الخوف الذى ورد فى الأديان الكتابية و ورد أيضاً فى الإسلام. لأن الخوف الوارد فى الكتب السابقة على لسان الأنبياء قبل محمد ﷺ إن صحت نسبته إليهم فإنه بمثابة التحذير والتنبيه من أجل المصلحة الغائية له ثم إن هذا الخوف لا يعم مطلق الإنسان وإنما يتوجه إلى المنحرف الذى يريد أن يفسد الحياة ويهلك فيها الحرث والنسل هذا من ناحية ثم إن الخوف على لسان الأنبياء لا يكون من مظاهر الطبيعة - لأنهم يعلمون أتباعهم أن الكون بما فيه ومنْ فيه مسخر للإنسان - والأنبياء يسعون إلى تبديد الخوف من أى كائن سوى الله ولذلك ينصرف الخوف فى معظم الحالات إلى الأمور التى تتعلق بالحياة المستقبلية أى فى الآخرة. فإذا ما تركنا الأديان الكتابية وجئنا إلى الإسلام فإن آيات القرآن تجمع بين الترغيب والترهيب فى كثير من الآيات بل إن بعض آيات القرآن تبدأ بجانب الأمن والأمان والتبشير أولاً. وبعد ذلك تأتى آيات العذاب مثل قوله تعالى ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾[1]

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٨وانظر المعالجة القيمة لهذه الفكرة فى الدين المقارن ص ٣١ - ٣٣ للدكتور كمال جعفر .رحمه الله

المسألة الثانية: نقد المذهب الحيوى

توجه مجموعة كبيرة من الباحثين الغربيين لتفنيد ما ذهب إليه البعض من أن الأحلام المنامية هى الباعثة على التدين وتمثل نقدهم فى الآتى : -

١- أن الصور التى يستحضرها البدائى غير متماسكة وغير مطردة. ثم إنه لا يستطيع أن يعتقد أن ما يراه حقائق ثابتة على الدوام لا اختلاف فيها ولا تباين. والبدائى لا يستطيع أن يميز فى أحلامه بين ما يكون ناشئاً عن وحى وإلهام، وما يكون منبعثاً عن أوهام المخيلة [١]

٢- أثبت علم الأجناس أن فكرة البدائى عن النفس كانت فكرة مركبة غير بسيطة فلم يكن يعتقد أن له نفساً واحدة بل له عدة نفوس ، وثبت أيضاً أن الإنسان قديماً كان يعتقد أن له مشاركات فى اسم أو فى ظل. أو فى طوطم وأن كل هذه الأشياء توجد فى وقت واحد ويتصل بها الإنسان. قد تمتزج وتتشابك ولكنها لم تنبثق إطلاقاً عن إحساس بفردية واحدة.

أما المذهب الحيوى فيضع تصوراً فردياً للأنا Ego ولكن هذه الفكرة التى جعلها " تيلور " التطور العقلى للإنسان لم يصل إليها البدائى على الإطلاق[٢]

٣- وكما يقول " دور كايم " إن البدائيين ليسوا فى حاجة إلى تفسير ظاهرة الأحلام وإنهم وإن احتاجوا إلى تفسيرها فليس الطريق الذى وضعته النظرية. ثم إن تجربة الحلم إن سلمنا أنها تكفى للاعتقاد بالروح فإنها لا تكفى لتعليل الاعتقاد بألوهية مصدرها فإن من الرؤى ما هو هذيان وأضغاث أحلام، وفيها ما هو مجرد ذكريات ماضية عادية. وليس شيء من ذلك يثير عقيدة التأليه. ثم إنه من جهة أخرى لا يعرف فى أمة من الأمم أن احترامها للموتى أو الأسلاف وصل

---

(١) انظر نشأة الدين ص ٤١ - ٤٢

(٢) نفسه

بها إلى عبادة جميع الموتى أو جميع الأسلاف وإنما الذى كان موضعاً للتقديس عندهم من عُرف فى حياته بقوة خارقة ممتازة تركت أثراً باقياً فى الطبيعة أو فى المجتمع. فليس الموت إذاً شرطاً ولا سبباً فى هذا التقديس، وإنما معيار التقديس هو تلك القوة السرية الخارقة أو تلك الجوهرة الإلهية التى تتجلى آثارها فى الحوادث الإنسانية العظيمة [١]

وينبغى علينا أن نذكر بأن نقد " دور كايم " وغيره للمذهب الحيوى كان تكأة لإثبات وجهة نظره الداعية إلى أن الباعث على التدين عند الإنسان هو العقل الجمعى الذى يتخذ رمزاً حيوانياً شعاراً له . فهو نقد موجه من قبل " دور كايم " وأنصار مدرسته لإثبات مذهبهم بعد نقد المذاهب الأخرى.

---

(١) انظر الدين ص ١٣٤

المسألة الثالثة: نقد نظرية دوركايم في (الطوطم)

سبق وأشرنا إلى أن " دور كايم " وجه سهام نقده لكل من المذهب الطبيعى، والمذهب الحيوى.. وقام بهذا النقد ليدلل على صحة نظريته هو ، ولكن الباحثين تناولوا نظرية (الطوطم) بنقد لا هَوَادَةَ فيه ولا رحمة وأتوا على بنيان النظرية من القواعد وتلخص نقدهم فى الآتى :-

١- ليس من المستطاع دائماً أن نستقى معلومات كافية عن الطبيعة الحقيقية لكائن ما من مجرد النظر فى أصل تكوينه فإن التغيرات والنظم التى تحدث له فى أثناء نموه قد تبرز فيه صفات وخصائص ما كنا نرى فيها أدنى أثر فى بدايته. إن الطبيعة الحقيقية لكائن ما إنما تتكون من قانون تطوره منذ نشأته الأولى إلى صورته النهائية [١]

٢- إن التساؤل الذى يبرز هنا هل نظام القبيلة الذى درس " دور كايم " أحوالهم يمثل دوراً أقدم من نظام الأسرة؟ هذه دعوى يعوزها الدليل بل هناك أدلة أثرية وتاريخية على عكسها[٢]

ثم هل قبائل استراليا الوسطى تمثل أقدم نظام معروف للقبائل؟ هذه مسألة غير مسلمة، وقد قام بهذا الباحث " شمت " حيث أثبت ما قرره الباحثون بما لا يدع مجالاً للشك. أن قبائل استراليا الوسطى لم تكن أقدم جماعة إنسانية إنما هى الطور السادس الذى انتهت إليه العقلية الوطنية لأهل استراليا بل هى أكثرها تقدماً وأحدثها[٣]، والمشكلة أن " دور كايم " قد قصر أبحاثه على (الطوطم) فى المنطقة الاسترالية المتوسطة ولم يشر إلى أنواع (الطواطم) فى شمال أمريكا إلا نادراً بينما المنهج العلمى كان يوجب عليه أن يقوم بدراسة مقارنة مفصلة (للطوطمية) فى جميع صورها لا أن يتوقف عند صورة واحدة (للطوطمية)، وهذا ما فعله"

---

(١) الدين ص ١٥٥.

(٢) نفسه ص ١٥٤ / ١٥٥

(٣) نشأة الدين ص ١٧٤

دور كايم " إذ قصر بحثه على منطقة معينة استقى معلوماته عنها من السياح والرحالة. ثم عمم أحكامه على الإنسان البدائى فى كل زمان ومكان.

٣ـ هل البدائيين الذين درس " دور كايم " أحوالهم كان لديهم الشعور بأن ما يقومون به حيال (الطوطم) ورموزه هو تقديس للمجتمع الذى ينتمون إليه؟ مع أن الذى يظهر من بحوث علماء الأثنوجرافيا أن البدائيين لم يكن لديهم شعور بمثل هذه الحقائق السامية وأن العقلية البدائية ما كانت لتستطيع أن تسمو إلى مثل هذه الآفاق فى التفكير. من جهة أخرى لا يمكن التسليم بما ذهب إليه " دور كايم " من أن (الطوطمية) تمثل أقدم ديانة إنسانية. إن الطوطمية كانت نظاماً دينياً لبعض شعوب بدائية اكتشفت فى صدر العصور الحديثة. وهذه الشعوب ظلت بمعزل عن الحضارات التى ظهرت بين سكان القارات، ولكن هل استمرت تلك الشعوب بمعزل عن تغيير معتقداتها وظلت محافظة على تلك المعتقدات؟ بل إن التسليم بهذا يحتاج إلى دلائل كثيرة تشير إلى عكس ما ذهب إليه " دور كايم"

وعلى فرض أن (الطوطمية) تمثل أقدم ديانة سارت عليها الشعوب البدائية منذ نشأتها فإنه لا يوجد دليل يحمل على اليقين ولا على الظن بأنها كانت الديانة السائدة فى فاتحة الإنسانية ولجميع شعوبها على الإطلاق.

وكما يقول الدكتور " عمارة نجيب " كما اتخذت اللوازم والمظاهر الطوطمية دليلاً على عكس هذه الفكرة أى على أن (الطوطمية) لم تكن أصل العقيدة الدينية لأنها نشأت بعد وقت طويل جداً لم يخل من دين وذلك قبل اتساع القبائل ومعرفتها للأنظمة الاجتماعية والقواعد (الطوطمية)[١]

ويمكن فى نفس الوقت الاستدلال بهذه اللوازم والمظاهر على وجود رجعية فكرية ممثلة فى (الطوطمية) سبقها وحى سماوى مسخه عقل الإنسان وعواطفه[٢]

---

(١) الطوطمية للدكتور على عبد الواحد وافى وانظر الإنسان فى ظل الأديان ص ١٢٥

(٢) الإنسان فى ظل الأديان ص ١٢٥

٤- على أن التساؤل الهام هل (الطوطمية) نظام دينى أصلاً؟ أو هو نظام اجتماعى فحسب؟ إن الاستقراء الدقيق للعشائر الاسترالية لا يثبت إطلاقاً فكرة "دور كايم"

لقد اتصلت(الطوطمية) اتصالاً قوياً بحياة العشيرة وبحياة الاتحاد وبحياة القبيلة ثم بحياة الفرد قبل ذلك أو بعد ذلك فالأمر سيان. غير أن الصلة بين عقيدة كل من تلك النظم الاجتماعية أو الأفراد غير واضحة على الإطلاق يسودها الغموض وتكتنفها الشبهات أو بمعنى أدق تكاد تكون معدومة، ومن العجيب أن يأتى " دور كايم " ويجعل منها مصدر الحياة الدينية ومنبعها. بينما ينشر هذا العدد الكبير من الباحثين أبحاثاً فى ضوء تجارب وأبحاث فى استراليا نفسها ينكرون فيها أية صلة بين الطوطمية والعقيدة الدينية[١]

٥- لقد اعترف " دور كايم " أن عدداً من قبائل استراليا قد وصلوا إلى فكرة الإله الأعلى أو " الإله الأوحد " وأنه كائن أزلى أبدى تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره وبالجملة فجميع الأمور ترجع إليه ليس فقط فى الحياة وإنما بعد الموت حيث يميز هذا الإله بين المحسن والمسئ[٢]

بعد ظهور هذه الحقائق نرى " دور كايم " يضرب عنها صفحاً وبدلاً من أن يقرر عقيدة التوحيد نراه يدخل فى جدال عنيف مع الباحثين الذين ذهبوا إلى أسبقية عقيدة التوحيد وكما يقول الدكتور " دراز " يعترف " دور كايم " بكل هذا. ولكن عند استنباط نظريته فى الألوهية يضرب صفحاً عن ذكر هذه الصورة الدينية الحقيقية ثم يعمد إلى ضرب من اللهو الخليع تأتيه بعض القبائل فى حفلات تضم كل شئ إلا الدين والعبادة ويترخص فيها بارتكاب أعمال شاذة تنافى قواعد الأخلاق المقررة والمتبعة عندهم بانتظام.

---

(١) الدين ص ١٧٣

(٢) نفسه ص ١٥٦/١٥٧

يعمد إلى هذه الحفلات الماجنة فيرسم لنا فيها لوحة بارزة يعرضها علينا قائلاً : إذا أردتم معنى الدين فها هنا منبعه ومظهره[١] هنا التحكم والهوى والرغبة لا الحكم الذى يسنده الدليل وتعضده الحجة. لقد رجح أمراً مشكوكاً فيه على أمر مقرر خاصة أن الذين قدموه من أهل الاختصاص فى علم الأنثربولوجيا ، و " الإتنولوجيا " بينما " دور كايم " لم يكن من علماء هذين العلمين إنما أقام أبحاثه على دراسات غيره من الباحثين[٢] ولذلك كان النقد إليه عنيفاً من قبل المختصين وكانت حجتهم مما يصعب الرد عليها من قبل " دور كايم " ومن ذهب مذهبه.

لعلنا قد أسهبنا بعض الشيء فى الرد على " دور كايم " ولكن ذلك مرده إلى أنه الأكثر شهرة من غيره ممن ذهبوا إلى أن الباعث على الدين هو (الطوطم)

٦ـ أما فيما يتعلق " بتايلر " و " ويلكن " فإن ما ذهبا إليه يقوم على فهم خاطئ للديانة (الطوطمية) لأنهما ظنا أن (الطوطمية) مظهر من مظاهر عبادة الحيوان والنبات مع أن (الطوطمية) تختلف اختلافاً جوهرياً عن عبادة الحيوان والنبات. لأن أفراد العشيرة لا يقفون حيال طوطمهم كما يقف عابد الحيوان أو النبات حيال معبوده لأن الذى يعبد الحيوان أو النبات يعتبر نفسه شيئاً حقيراً إذا قيس بإلهه على حين أن النظام الطوطمى يجعل الإنسان نفسه من طبيعة طوطمية فالعلاقة بين أفراد العشيرة وفصيلة طوطمها ليست علاقة عُباد بآلهة. بل علاقة أقرباء تربطهم بعضهم ببعض وشيجة الدم ولُحْمَةُ النسب الوثيق ، ولو كانت الطوطمية متشعبة عن عبادة أرواح الموتى للاعتقاد بحلولها فى أجسام بعض الحيوانات أو النباتات كما يذهب " تايلور " وويلكن " لما ظهرت فى الصورة التى وصفناها بل تظهر فى الصورة التى تبادرت إلى ذهنيهما وهى عبادة الكائنات نفسها التى حلت فيها هذه الأرواح وهذا[٣] لم يحدث

---

(١) الدين ص ١٥٧

(٢) نشأة الدين ص ١٧١

(٣) الطوطمية للدكتور على عبد الواحد وافى

٧ـ أما ما ذهب إليه " جيفوفنس " فإن نظريته تصور (الطوطمية) على أنها ناشئة عن عمل إرادى قصد إليه الأفراد لتحقيق غاية نفعية أو وقائية ولو كان الغرض من (الطوطمية) أن يتقرب إليها الإنسان لعقد الإنسان هذه الصلة بينه وبين أكبر مظاهر الطبيعة قوة وبطشاً وإثارة للرهبة والخوف فى نفس الإنسان مع أن الواقع أن معظم هذه (الطواطم) تتألف من نباتات، وحيوانات ضعيفة لا ترهب ولا تخيف ولا سيطرة لها على حياة الإنسان. وهذا يدل على أن القبيلة والعشيرة اتخذوها رمزاً فحسب ولكن أعطوا لها مفهوم القداسة والتعظيم[١]

نقد القول بأن الباعث على التدين هو الحب

إن اختزال الباعث على التدين فى كونه شعوراً بالحب ينقص مفهوم الدين ويبسطه إلى حد كبير. مع أن هذا القول جزء من بواعث متعددة وليس هو الباعث الوحيد كما يريد أنصاره له.

ثم إن الشعور بالحب معنى جميل، ولكن هل يصل إلى درجة يجعل الإنسان يعتقد فى الدين، ويرتبط بالمعبود؟ من الممكن أن تكون حالة الحب تلك دافعة للإنسان إلى الطاعة والعبادة، وذلك بعد اعتقاده فى دين من الأديان مثل المسيحية أو الإسلام أما أن تحرك هذه العاطفة الإنسان البدائى إلى التدين فهذا فيه نظر ويحتاج إلى تمحيص.

نقد القول بأن التجارب النفسية هى الباعثة على التدين

إن أصحاب هذه الفكرة بالرغم من إفاضتهم فى شرحها وبيان فلسفتها إلا أن هذه الوجهة لا تنطبق على سائر الديانات وهى أجدر بأن تلحق بالفكرة الفلسفية منها بالوجهة الدينية. لأنها بلغت حداً كبيراً من التجريد يبعد أن تكون فكرة عالمية فى تفسير الباعث على التدين، ومن ثمَّ تستعبد هذه الفكرة على الرغم من عمقها وجدتها لتلحق بالفلسفة بعيداً عن الدين[٢] لأن مجال الفلسفة أولى بها عن مجال الدين.

---

(١) الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافى وانظر الإنسان فى ظل الأديان ص ١٧٣ وما بعدها.

(٢) الدين بتصرف ص ١٣٨.

المسألة الرابعة: نقض القول بالتطور فى خلق الإنسان

بنى دعاة التطور فى الدين على مذهب التطور فى الكائنات. تلك النظرية التى دعا إليها "ديدرو" [١] و "لامارك" [٢] وأخذت شهرتها على يد " دارون " [٣] ومفاد هذه النظرية أن الكائنات تطور بعضها عن بعض [٤] وقد صبغت هذه النظرية الحياة الأوربية وكان لها تأثير كبير فى جميع نواحى الحياة وفسَر بها بعض الباحثين نشأة الدين عند الإنسان يقول أحدهم: إننا إذا قبلنا نظرية تطور الإنسان عن بعض الصور الحيوانية الدنيا فإننا مضطرون إلى أن نبحث عن أصل العواطف والبواعث الدينية فى تلك الغرائز التى ليست فى أصلها دينية بصورة بحتة[٥].

والتساؤل هنا هل نظرية التطور فى الكائنات مسلم بها؟ إننا بحاجة إلى نقض هذه النظرية أولاً ثم ننطلق إلى نقض نظرية التطور فى الدين ثانياً.

أولاً: نقض نظرية التطور فى الكائنات

إنه ما من أساس من الأسس التى قامت عليها نظرية " دارون " إلا وأبطلها الباحثون سواء من ناحية الحفريات[٦] أو من ناحية الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح [٧]. أو من ناحية علم الأجنة أو علم التشريح. هذه الأسس أضحت الآن حديث المؤتمرات العلمية التى انتهت إلى أن هناك عمليات تزوير واسعة تمت لصالح نظرية التطور على الرغم من عدم صحتها أصلاً[٨] وأخيراً نكتفى هنا عبارة " آرثركيث " وهو أحد أرباب الدارونية والمنادين بها يقول : **(إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة**

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٩٠ / ١٩١ ، الموسوعة الفلسفية ـ المختصرة ص ١٣٨

(٢) موسوعة الفلسفة ج ٢ ص ٣٤٨الدكتور عبد الرحمن بدوى

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٥١

(٤) أصل الأنواع ص ١١٩

(٥) فى الدين المقارن ص ٢٧.

(٦) انظر خلق لا تطور ص ١٠٧ / ١٠٨ وانظر الإسلام يتحدى ص ٣٩

(٧) انظر العلم يدعو إلى الإيمان وتوحيد الخالق ج ٣ ص ٣٩/٨٨

(٨) انظر للأهمية خلق لا تطور لمجموعة من العلماء الغربيين ترجمة إحسان حقى ـ الناشر دار النفائس بيروت

علمياً ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه [١]

إذن فالقضية لم تعد أمر نظرية علمية، ولكن الأمر أصبح أمر إلحاد وكفر بالله، وأنه لا سبيل أمام أرباب النظرية إلا التسليم بها حتى ولو كانت تفقد الأدلة العلمية لأن السبيل الآخر هو الإيمان بالله وهذا لا يخطر لهم على بال، وبعد هذا وغيره نجد أنفسنا مضطرين لعدم قبول النظرية من الناحية المتعلقة بخلق آدم عليه السلام. مثل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [٢]وقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٣] وهذه الآيات وغيرها مثل قوله تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [٤]

تفيد الآتى:-

أولاً: أن آدم خلق بيد الله ولم يتطور عن شيء آخر. ومن نسله جاء الإنسان مستوياً فى خلقته مستعداً لقبول هدى الله.

ثانياً: أن آدم خُلق وهو فى أعلى مراحل النضج البشرى لا كما يزعم التطوريون بأن الإنسان البدائى كان فى أدنى مراحل المعرفة وكان متوحشاً وظل يتعلم من الحيوان إلى أن صار إلى ما هو عليه الآن.

ثالثاً: أن الله خلق من كل شيء زوجين وهو إشارة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض بل فى الكون كله وحين تدلنا الآية على هذه الحقيقة نجدنا

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٣٩

(٢) سورة الحجر الآية ٢٨/٢٩

(٣) سورة البقرة الآية ٣١

(٤) سورة الذاريات الآية ٤٩

أمام أمر عجيب عظيم. نطلع من خلاله على الحقائق الكونية فى هذه الصورة المبكرة كل التبكير[١]

بعد هذا كله نرى أن القول بعدم تعارض نظرية [٢] التطور مع حقائق القرآن فيه تجاوز ليس هناك أى مبرر لقبوله مادامت أن الأدلة القرآنية تدحضها وأيضاً الأدلة العلمية. ونختم بقوله تعالى ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[٣]

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٣٨٥

(٢) انظر مقال الدكتور علم الدين كمال ـ تطور الكائنات الحية ص ٤٩. مجلة عالم الفكر المجلد الثالث العدد الرابع ١٩٧٣م ـ الكويت.

(٣) سورة الكهف الآية ٥١.

المسألة الخامسة: نقض القول بالتطور فى العقيدة

نسجل فى البداية أن دراسة الإنسان البدائى هى دراسة تقوم على الظن لا على اليقين.. وهذه الدراسة تقوم على خطأ مزدوج من ناحية الغاية والوسيلة لأن هذه المنطقة البدائية المحضة قد اعتبرها العلم منطقة حراماً حظرها على نفسه وأعلن فى صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف، وتَستَرُ بثوب مستعار. لأن مؤرخى الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجرى وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تاماً فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب[١]

إن ما نعرفه عن التاريخ الإنسانى قبل خمسة آلاف سنة قليل أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف سنة فيُعد أقل من القليل[٢]، وما قبل ذلك يعتبر مجاهيل لا يدرى التاريخ عنها شيئاً فما هى معرفة العلماء بمليونين ونصف مليون عام؟ لقد اكتشف فى جبل حجرى بصحراء تقع شرق بحيرة " رودلف " فى كينيا بقايا جمجمة وساق يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام ولذلك تعتبر هذه البقايا أقدم أثر للإنسان الأول[٣] إن المعلومات التى ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير بل ضاعت فى أمواج متلاطمة فى محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف . إن كتابة تاريخ شخص فضلاً عن جماعة فى العصر الحديث أمرٌ فى غاية الصعوبة فكيف بتاريخ يمتد إلى فجر البشرية [٤] ولذلك جانب الصواب الذين درسوا العقائد البدائية عند جماعة من البشر ثم عمموا أحكامهم على الجنس البشرى بأكمله ونستطيع أن نُجمْلَ أهم الانتقادات الموجهة إلى القول بالتطور فى الدين فى الآتى :-

---

(١) الدين ص ١٠٨

(٢) العقيدة فى الله ص ٢٤٥

(٣) انظر مجلة عالم الفكر العدد الرابع المجلد الثالث ص ٩٧٢

(٤) العقيدة فى الله ص ٢٤٥

أولاً : إن الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية خطأ فى الاستدلال. لأنه مبنى على أن تلك الأمم تمر بأدوار متقلبة، وهذا الافتراض لم يقم عليه دليل. بل الذى أثبته التاريخ واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية أن فترات الركود والتقهقر التى سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة وبالتالى فلا تصلح الأنماط الدينية المنحطة أو الهمجية للاستدلال على نقطة البدء فى التدين لأنها تمثل انتكاسات فى تاريخ البشرية(١) وكما يقول " هوفدنج" Hoffding " إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان فى حل مشكلة بزوغ الدين فى النوع الإنسانى فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى فى موضع ما، وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة الديانات متقدمة قليلاً أو كثيراً حتى إن أخطر القبائل الهمجية التى نعرفها قد مرت بأدوار شتى وتطورت تطوراً بعيداً "(٢)

ثانياً : إن القول بأن قوى النفس تسير فى نموها على قدم المساواة مع تقدم القوى المادية فى الحياة. قول ينقصه الدليل وتعوزه الحجة والأقرب إلى الصواب أن الحياة البسيطة التى كان يعيشها الإنسان البدائى كانت تدفعه إلى التأمل الدينى، وتنمى مشاعره. بينما اشتغال الناس بترف الحياة الجسدية فى العصور الحضارية، هذا الترف يؤدى إلى فتور الناحية الروحية لأن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص بقدر ما تنمو وتقوى أضدادها ككفتى الميزان لا ترفع إحداهما إلا انخفضت الأخرى(٣)

ثالثاً : إن قياس تطور الدين على تطور الفنون والصناعات حجة على الذين يقولون بالتطور لا لهم . لأن معنى التطور فى الفنون والصناعات هى أنها تبدأ فى صورة بسيطة ساذجة ثم تنتقل تدريجياً إلى نوع من التكثر والتركيب تزداد به تعقيداً كلما بعدت عن أصلها وواضح أن تطبيق هذا القانون التطورى بمعناه العلمى الحيوى على العقيدة الإلهية يستوجب أنها سارت أيضاً من الوحدة إلى الكثرة، ومن النقاوة

---

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ١٠٩ وانظر فى الدين المقارن ص ٤٣

(٢) نقلاً عن الدين ص ١٠٩ وانظر الوحدانية ص ٨٠ للدكتور بركات دويدار مطبعة السعادة.

(٣) الدين ص ١١٠

والسهولة واليسر إلى التعقد بالإضافة إلى الأسطورية والنزوات الخيالية التى لا ضابط لها من العقل السليم(١)

ثم لو كان قياس تطور الدين على التطور فى العلوم والصناعات لوجدنا أن إنسان القرن العشرين قد وصل إلى درجة عالية من الاعتقاد والتطور الصحيح للألوهية ولكن هل حدث ذلك؟ الواقع يشهد بعكس ذلك. لقد اتخذ إنسان القرن العشرين أصناماً عبدها من دون الله مثل التقدم. والفردية، وتمجيد الأمة وأصنام القوة المسلحة وغيرها من طوطم ورموز مقدسة، وطقوس واحتفالات (٢) ثم هل اندثرت معبودات الإنسان البدائى بعد النقلة الحضارية الضخمة؟ إنه وبناءً على التطور يجب أن تتلاشى الوثنيات القديمة ولكن ها هى الوثنية البغيضة تطل علينا من آسيا وإفريقيا وأمريكا (٣). هل أتى نبأ الهند وتفجيراتها النووية. للذين يقولون بالتطور من الأدنى للأعلى فى التدين؟ ما بال الكثرة من سكان الهند يعبدون البقرة ويقدسون كثيراً من مظاهر الطبيعة فى القرن العشرين ويموت أكثرهم جوعاً ولا يذبحون بعض الحيوانات ثم ما شأن روسيا والصين والملحدون فى أوربا بعد التقدم العلمى المذهل؟ إنهم مع ما ذكر ما زال الكثير منهم لا يؤمنون بالله ولا يعترفون بالخالق(٤). بعد هذا كله يصر البعض على القول بالتطور فى الديانات من الكثرة إلى الوحدة.

رابعاً: إن هناك حضارات ازدهرت فى أمم وأماكن معينة فى الماضى على حين أننا نجد هذه الأمم وهذه الأماكن الآن تمثل نموذجاً فى التدهور والتأخر فهل يصح القول بأن حالة التدهور والتأخر تمثل نقطة البدء لهذه الأمم أو تلك الأماكن؟(٥) بالضرورة لا. ومن ثمَّ فقد بطل القول بتطور العقيدة من التعدد والوثنية إلى التوحيد.

---

(١) الدين ص ١١١

(٢) انظر ما يعد به الإسلام ص ٢٦٧ روجيه جارودى، وانظر معركة التقاليد ص ٨٢/٨١

(٣) انظر الإسلام والأديان ص ٣٣

(٤) مقارنة الأديان ص ٤٠/٣٩

(٥) فى الدين المقارن ص ٤٣.

إن الحديث عن التطور فى العقيدة بضاعة أوربية استنفدت أغراضها أو انتهت صلاحيتها. ويجب علينا أن نفهم ونقرر ونعلن أن الدين حقيقة علوية قائمة بذاتها. ظل الإنسان ينهل منها بحسب طاقته واستعداده حتى وصل على يد الرسل إلى أوضح فهم لها فى عقيدة التوحيد.(١) الذى لم يكن هو نهاية الأطوار بل هو البدء والمختتم(٢) وهو الكلمة الأولى على لسان الأنبياء والكلمة الأخيرة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه إلى قيام الساعة.

خامساً: إن القائلين بالتطور فى الديانات لو قصروها على الديانات الوضعية لكان لهم وجه أما أن يعمموا أحكامهم على الديانات الوضعية وغيرها فهذا لا يجوز ولا يتأتى. على أن نزعة التوحيد فى الديانات الوضعية ليس مردها إلى الإنسان وتفكيره ولكن مردها إلى بقايا الوحى الذى أنزله الله مع الرسل إلى الأمم مصداقاً لقوله تعالى ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٣)

---

(١) فى النفس والمجتمع ص ١٦ ـ محمد قطب دار الشروق

(٢) الأديان فى القرآن ص ٣٢ الدكتور محمود بن الشريف الطبعة الثالثة دار المعارف ١٩٦٣م

(٣) سورة فاطر الآية ٢٤

المسألة السادسة: مناقشة العقاد فى قوله بالتطور فى العقيدة

استناداً على قصة إبراهيم عليه السلام فى سورة الأنعام تابع الأستاذ العقاد الاتجاه القائل بأن الإنسان تطور فى التدين من التعدد إلى الوحدة وينبغى هنا أن نقرر أن متابعة العقاد لم يكن لهم على طول الخط. لأنهم حين قالوا بأن الإنسان مصدر الدين وذكروا البواعث عليه. لم يقولوا بأنه انتهى إلى التوحيد الذى جاء به الرسل. لأن غالبيتهم لا يؤمنون بالله أصلاً. أما الأستاذ العقاد فإنه تابعهم فى القول بأن بداية الدين التعدد. ثم توصل الإنسان إلى التوحيد الذى جاء به الرسل. واستدل بقصة إبراهيم عليه السلام الواردة فى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١)

كانت هذه الآيات هى التى استدل بها العقاد على التطور فى العقيدة "يقول فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليقة والحياة فإذا دخلت هى أيضاً فى عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله فى حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأقمار، وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ (٢)

والسؤال الآن هل فعلاً هذه الآيات تدل على التطور فى العقيدة والانتقال من الوثنية إلى التوحيد كما ذهب العقاد؟ إن الإجابة على هذا السؤال تكمن فى استعراض ما قاله العلماء فى تفسير هذه الآيات.

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٦ ـ ٧٨

(٢) الله ـ كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية ص ٣٦/٣٧ـ دار المعارف ١٩٦٣م

يقول الزمخشرى عن إبراهيم عليه السلام " كان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها وأن وراءها صانعاً صنعها ومدبراً دبر طلوعها أما قوله (**هذا ربى**) فهذا قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكى قوله غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة "[١] (**إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات**) أى للذى دلت هذه المحدثات عليه وأنه مبتدؤها ومبتدعها. ثم يتساءل الزمخشرى بقوله " فإن قلت لمّ احتج بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ؟ قلت الاحتجاج بالأفوال أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب"[٢]

ويعلق ابن المنير السكندرى على عبارة الزمخشرى بقوله " وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسانه "[٣]

أما الفخر الرازى فيقرر أن إبراهيم ما كان شاكاً وإنما أراد أن يثبت لقومه أن الإله واحد وأن ما يعبدونه من دونه ليس لهم عليه حجة ويحشد الرازى الأدلة لإثبات أن إبراهيم كان يدعو قومه بعد أن دعا أباه إلى التوحيد وأن هذه الواقعة حدثت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض ثم يقول " ومن كان منصبه فى الدين كذلك وعلمه بالله كذلك فكيف يليق أن يعتقد بإلهية الكواكب "[٤]

وحجة أخرى يسوقها " الرازى " وهى أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه والدليل عليه أنه تعالى لما ذكره هذه القصة قال سبحانه ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ** ﴿٨٣﴾ ﴾[٥] ولم يقل على نفسه . ثم يقول

---

(١) الكشاف ج ٣ ص ٣١و انظر الألوسى ج ٧ / ٨ ص ١٩٨ / ١٩٩

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٣٢

(٣) هامش الكشاف ج ٢ ص ٣٢

(٤) التفسير الكبير للرازى ج ١٣ /. ١٤ ص ٤٧-٤٨

(٥) سورة الأنعام الآية ٨٣

" فلنعلم أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه "[١]

أما تخريج قوله (هذا ربى) فيذكر " الرازى " أن هذا ليس على سبيل الإخبار وإنما على سبيل المناظرة. كمن يعبر عن شبهة الخصم بلفظها حتى يرجع إليه فيبطلها أو يقال إن المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار إلا أنه أسقط حرف الاستفهام استغناءً عنه لدلالة الكلام عليه أو ذكره على سبيل الاستهزاء كما يُقال لذليل ساد قوماً هذا سيدكم على سبيل الاستهزاء[٢] وكلها محاولات عقلية تؤيد الأدلة النقلية التى تدل على توحيد إبراهيم أولاً لله ثم مجادلته لقومه.

أما " الشهر ستانى " فقد أبدع فى استنباط دلائل التوحيد من هذه الآيات على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام. يقول الشهر ستانى " بعد إيراد قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ "[٣] فيا عجباً ممن لا يعرف رباً كيف يقول (لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ونهاية المعرفة، والواصل إلى الغاية والنهاية كيف يكون فى مدارج الهداية "[٤]

ويُخَرجْ قوله ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ﴾[٥] بقوله " إن الموافقة فى العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج "[٦] ويَعُدُ هذا شاف كاف[٧] ويبين ما اشتملت عليه هذه الآيات وما قام به إبراهيم عليه السلام من بيان الحجة لقومه وإلزامهم إياها فيذكر أنه أى إبراهيم " قرر مذهب الحنفاء وأبطل مذاهب الصابئة، وبيَّن أن الفطرة هى الحنيفية، وأن الطهارة فيها، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها وأن النجاة والخلاص متعلقة بها. وأن

---

(١) نفسه
(٢) نفسه ج ١٣ / ١٤ ص ٤٩ / ٥٠
(٣) سورة الأنعام الآية ٧٧
(٤) الملل والنحل للشهر ستانى ص ٣٠٧
(٥) سورة الأنعام الآية ٧٨
(٦) الملل والنحل ص ٣٠٧ ومنهج الشهر ستانى ص ٥٧١
(٧) نفسه

الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها، وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها، وأن الفاتحة والخاتمة و المبدأ والكمال منوطة بتحصيلها وتحريرها (ذلك الدين القيم) والصراط المستقيم والمنهج الواضح والمسلك اللائح قال تعالى لنبيه المصطفى ﷺ. ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [١] يا لها من شفافية مطلقة كشف عنها الشهر ستانى بأوضح عبارة وأجملها وأوجزها وزيّن كلامه وطلى حجته باستدلاله الموفق بقول الله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا) فهذا القول هو الفصل والحكم الذى لا معقب له.

وقد سار على هذا النهج ابن كثير رحمه الله. إذ يقرر أن إبراهيم عليه السلام فى هذا المقام كان مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه ثم يتساءل كيف يكون إبراهيم ناظراً فى هذا المقام وهو الذى قال الله فى حقه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [٢] وقال ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [٣] وقال ﴿ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ [٤]

إن إبراهيم أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد هذا أنه كان مناظراً لقومه قوله تعالى ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ [٥]

وقد أنكر الطبرى على من خرَّج المناظرة وأنها كانت إقامة الحجة على قوم إبراهيم منه وانتصر لما روى عن ابن عباس وعمن روى عنه من أن إبراهيم قال للكواكب هذا ربى، وبعد أن عدد ما استدل به الذين أجروا الآية على ظاهرها قال " وفى خبر الله تعالى عن قول إبراهيم حين أفل القمر (**لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين**) الدليل على خطأ هذه الأقوال (الذين صرفوها عن ظاهرها) وأن

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠. ٣٢ وانظر الملل والنحل ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥١

(٣) سورة النحل الآية ١٢٠

(٤) سورة البقرة الآية ١٣٥

(٥) سورة الأنعام ٨٠ وانظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٥١ ـ ١٥٢ وانظر مختصر تفسير البغوى ج ١ ص ٢٥٩

الصواب من القول فى ذلك فى الإقرار بخبر الله تعالى الذى أخبر عنه والإعراض عما سواه "[١]

والذى دعا الطبرى (عليه رحمة الله) إلى هذا القول ما روى من آثار عن ابن عباس، وقوله (لئن لم يهدنى) ولكن الرازى (رحمه الله) قال " لا يمكن حمل لفظ الهداية على التمكين وإزالة الأعذار ونصب الدلائل لأن كل ذلك كان حاصلاً . فالهداية التى يطلبها بعد حصول هذه الأشياء لابد وأن تكون زائدة عليه"[٢] ويكون معنى لئن لم يهدنى ربى " لئن لم يثبتنى ربى على الهدى. ليس لأنه لم يكن متهدياً . لأن الأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان "[٣]

وأخيراً بعد عرض هذا الحشد من الأدلة يتضح تماماً أن إبراهيم لم يكن شاكاً ولا معتقداً فى النجوم أولاً ثم فى القمر ثانياً ثم فى الشمس قبل أن يصل إلى التوحيد ولا أدرى كيف غابت هذه المعانى كلها عن الأستاذ العقاد (غفر الله له) وهو صاحب العقلية الكبيرة فى الدفاع العقلى عن الإسلام؟ اللهم إلا متابعته للغربيين فى هذا الشأن، وخطورة متابعة الغربيين فى القول بالتطور حتى وإن انتهى إلى القول بالإله الواحد. أننا ما دمنا قد سمحنا لأنفسنا بقبول التطور فى الدين فما المانع أن يأتى وقت تتطور فيه فكرة الإله ذاته . إلى فكرة غيره قد لا تمت إلى الدين بصلة.

يصور ذلك الأستاذ محمد قطب بقوله " إذا كانت الحياة تتطور من الخلية الواحدة إلى الإنسان المعقد الشديد التعقيد فماذا يمكن أن يكون ثابتاً على وجه الأرض؟ إن فكرة " الإله تُطور فى تفكير البشرية إنها ليست فكرة أزلية ثابتة كما يصورها الدين. لقد تطورت من قبل ويمكن اليوم أن تتطور . كانت عبادة للوالد وعبادة للطوطم، وعبادة لقوى الطبيعة المختلفة ثم صارت عبادة لله ولكنها يمكن أن تتطور. يمكن أن تكون عبادة لأى شئ آخر "[٤] وهذا ما حدث بالفعل وينادى بها الآن البعض باسم

---

(١) تفسير الطبرى ج ١١ ص ٤٨٣/٤٨٤/٤٨٥ تحقيق أحمد شاكر ومحمود شاكر ـ طبعة دار المعارف .

(٢) التفسير الكبير للرازى ج ١٣/ ١٤ ص ٥٦

(٣) مختصر تفسير البغوى ج ١ ص ٢٥٩/ ٢٦٠

(٤) التطور والثبات ص ٢١ محمد قطب دار الشروق

العلم والتقدم والتطور يقول " جوليان هكسلى " : لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا وهى لا تستطيع الآن أن تقبل أية تطورات. لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين جاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية ثم العقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة (الإله الواحد) وقد وصل هذا الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته ولا شك أن هذه العقائد كانت فى وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر والمتطور "(١) إن التعبير هنا عن الإنسان الذى اخترع الدين بداية من السحر ونهاية إلى فكرة الإله الواحد. ولكن ما دام الأمر خاضعاً للتطور. فإن فكرة الإله الواحد التى اخترعها الإنسان لم تعد مناسبة للمرحلة التى وصل إليها العلم والإنسان ومن ثمَّ فإن الفائدة تكمن فى تجاوز هذه الفكرة وتلك المرحلة والبحث عن شيء آخر يسد الفراغ إلى حين. ثم يُتجاوز إلى شيء آخر وهكذا دواليك. هذا هو تصور الغربيين للتطور الذى تأثر به ماركس فى قوله " إن إزالة الدين بوصفه السعادة الوهمية للشعب هى الشرط الوحيد لتحقيق سعادته الحقيقية "(٢) وعبر عنه إنجلز بقوله " تكمن أصول الديانة فى النظريات المحدودة الجاهلة التى تنشأ فى حالة الهمجية "(٣)

وكما يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم " إن تطبيق فكرة التطور على الدين تؤدى منطقياً إلى ما ذهب إليه " فويرباخ " من الاعتراف بالدين على أنه من وضع الإنسان والقول بأن فكرة " الله " نفسها ليست سوى مثل أعلى متغير وضعه الناس لأنفسهم سداً لحاجات ما يسميه " التجربة الدينية "(٤) وفكرة التطور تلك ـ يواصل أستاذنا ـ تؤدى بالضرورة إلى تكذيب النصوص الدينية التى تقرر سمو التصور الدينى عند سيدنا آدم عليه السلام ، وتقرر استحالة قبول تعدد الآلهة فى أى عصر من عصور النبوة كما تقرر وحدة الدين عند الله (**إن الدين عند الله الإسلام**) وقد تنطبق هذه

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٣٨ ـ ٣٩

(٢) موسوعة الفلسفة ج ٢ ص ٤٢٠

(٣) أصول الفلسفة الماركسية ج ٢ ص ٢٤٢

(٤) تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ١١٩

النظرية أولا تنطبق على الأديان الوضعية أما الدين الذى هدى الله إليه الإنسان منذ آدم عليه السلام فلا يقبل هذه النظرية على أى حال من الأحوال وإنه لمن العبث فى تقديرنا ، وفى تقدير كل منصف أن تُتخذ هذه النظرية المتهافتة أساساً تفسر فى ضوئه الحقائق الدينية الإلهية مهما تكن صعوبات هذا التفسير أو استحالته فى كثير من النقاط الرئيسة وإن كان من الجائز أن تتخذ أساساً لتفسير الأديان الوضعية" **ولله در ما قاله وقاله غيره من الذين يضعون الأمور فى نصابها الصحيح مهما كانت الأصوات العالية التى تنادى بغير ذلك**[1]

---

(١) الإسلام والاتجاهات العلمية ص ٧٢ ـ ٧٣



مصدر الدين وبواعث التدين عند جمهور المسلمين

المبحث الأول:
القرآن الكريم وحديثه عن مصدر الدين

تمهيد:-

ذكرنا أن هناك اتجاهين رئيسيين فى مصدر الدين والباعث عليه. وقد عرضنا الاتجاه القائل بأن الدين مصدره الإنسان وهناك اتجاه آخر يذهب إلى أن الدين مصدره الله وهذا الاتجاه يقرر أن العقيدة الدينية لم يسر إليها الإنسان بل سارت هى إليه وأنه لم يصعد إليها بل نزلت عليه وأن الناس لم يعرفوا ربهم بحجة العقل بل بنور الوحى[١]

وهذا قول جمهور أهل السنة والجماعة ونفرُ، نفرّ من الباحثين الغربيين انتهوا بعد دراساتهم إلى أن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر وأن الوثنيات إن هى إلا عرض طارئ ومرض متطفل بجانب هذه العقيدة العالمية ومن أبرز الباحثين الغربيين فى هذا الاتجاه " شلنج " الذى ذهب فى كتابه " فلسفة الميتولوجيا " إلى أن فكرة عن التوحيد غامضة وغير واضحة كانت تسود الإنسانية الأولى "[٢]

وكان منهم " لانج " "Anderelang " الذى كان ظهور مذهبه مؤذنا بعهد جديد فى تاريخ الأديان والأجناس فقد بشر بقوة بأن أقدم ديانة فى الوجود هى ديانة إله السماء وعنها تشعبت الأديان . وقد أثارت آراء لانج دهشة كبرى فى الأوساط العلمية السائدة فى ذلك الحين. وهاجمها كثير من علماء أوربا فى ذلك الوقت [٣] كما يقرر الدكتور النشار.

---

(١) الدين ص ١٦٤

(٢) نشأة الدين ص ١٧٩

(٣) نفسه ص ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩١

ومنهم " ويليم شميد " الذى درس أحوال القبائل ومعتقداتها فرأى أن عقائد هذه القبائل الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها إلى عقيدة الإله الواحد "[١]

ولكن يجب أن نحتاط فى عرض آراء الغربيين الذين يذهبون إلى القول أن الإنسان بدأ موحداً. ثم انتكس إلى التعدد والوثنية وهذا التحفظ مرده إلى أمرين :

الأول: أن التوحيد الذى يقولون به لا ينسبونه إلى السماء عن طريق الأنبياء . وإنما يدرسون القبائل وعاداتها وتقاليدها فهو توحيد مختلط بالوثنية.

الثانى: أنهم يدرسون هذا الدين. فى دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة. وهذه الدراسة لا يملكون وسائلها.

يقول العلامة الدكتور دراز وهو بصدد التعليق على القائلين بالتطور والقائلين بالفطرة يقول رحمة الله عليه " غير أنه مهما تتفاوت النتائج فى نظر المذهبين " التطورى والفطرى " فإنهما متفقان على موضوع البحث وهو تحديد صورة العقيدة " البدائية " الحقيقية وعلى منهاجه وهو دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة ونحن نرى أن وضع المسألة على هذا الوجه ومحاولة حلها من هذا الطريق ينطوى على خطأ مزدوج فى الغاية وخطأ فى الوسيلة "[٢]

وبعد أن يدلل على خطأ الفريقين يقرر أن الغرض الذى بنيت عليه البحوث الحديثة كلها أسست على جرف هار لا تطمئن عليه الأقدام[٣]. ومعه الحق فيما ذهب إليه.

ولذلك فنحن إنما نذكر هذه الأقوال للغربيين على سبيل الاستئناس فقط ويبقى عندنا المصدر الحق الذى نستقى منه الحديث عن مصدر الدين والباعث عليه وحقيقة المعبود الذى توجه إليه الإنسان قديماً. على امتداد التاريخ وكيف ظهر الانحراف . كل هذه الأمور تحدث عنها الإسلام.

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب ج ٦ ص ٣٦ وما بعدها الدكتور جواد على.

(٢) الدين ص ١٠٨

(٣) نفسه ص ١٠٩.

حديث القرآن الكريم والسنة عن مصدر الدين

إن تاريخ العقيدة الدينية قسم منه لم يقع على الأرض بل حدث فى السماء ولذا فإن الرأى الصواب هو أن نتلمس حقيقة الدين ومصدره من الخالق سبحانه وتعالى الذى فصَّل لنا حالة الإنسان الأول وتدينه . يقول سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1]

ويقول سبحانه ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2]

هذه الآيات تقرر الآتى :-

أولاً أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق آدم قضى أن يكون خليفة فى الأرض يخلف الله فيها بمنهج الحق والتوحيد.

ثانياً : أن الله عز وجل خلق آدم وهو فى قمة النضج العقلى والمعرفى بدليل أن الله علمه الأسماء أى اسم كل شيء كما يقول ابن عباس [3]. وهذه الأسماء لم يعرفها الملائكة وعرفها آدم وأنبأ الملائكة بها...

ثالثاً : أنه منذ خلق آدم حواء وهناك أمر ونهى تمثل فى إباحة الجنة له بما فيها من الطيبات باستثناء شجرة مخصوصة . لا يعلمها إلا الله وحذرهما من الشيطان الذى

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠

(٢) سورة البقرة الآية ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨.

(٣) مختصر تفسير البغوى ص ١٩

أظهر العداوة المبكرة لآدم عليه السلام حين امتنع عن السجود له مع بقية الملائكة امتثالاً لأمر الله.

رابعاً: أن الله أهبط آدم من الجنة بعد أن نسى ما عهد به الله إليه، وعده الله بأن يُنزل عليه وعلى ذريته هداه كى يعرف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه ووعد المهتدين بالسعادة فى الدنيا والفوز فى الآخرة أما المكذبين المعرضين فأوعدهم النار خالدين فيها.

خامساً: تدلنا هذه الآيات وغيرها أن مصدر الدين هو الله وأن الإنسان الأول نزل بالوحى والهداية والتوحيد وأن الباعث له على التدين هو الفطرة التى أودعها الله فيه، وجعله مستعداً لقبول الهدى والخير[1]

---

(١) انظر العقيدة فى الله ص ٢٤٥، ٢٤٦ وانظر الإسلام والأديان ص ٢٤وانظر دعوة التوحيد ٧٩ـ ٩٢وانظر ظلال القرآن ج ١ ص ٥١ـ ٥٥

المبحث الثانى

البواعث على التدين عند جمهور المسلمين

آدم وذريته الأولون كانوا على التوحيد

سبق وأوضحنا أن الله أنزل آدم. ومعه الهدى الذى من اتبعه لا يضل ولا يشقى ومن يُعرض عنه فإن له معيشة ضنكاً، وحديثنا هنا عن ذرية آدم المتقدمين. هل عبدوا الإله الواحد أو بدأوا وثنيين؟

جمهور أهل السنة على أن آدم وذريته كانوا على التوحيد ليس فقط فى حياة آدم وإنما استمروا على التوحيد فترة طويلة تقدر بعشرة قرون. واستدلوا على هذا الرأى بعدة حقائق نعرضها فى المسائل التالية :-

المسألة الأولى: فطرة الله التي خلق الناس عليها والميثاق الذى أخذه عليهم.

يقول تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١]

وقد اتفق جمهور المفسرين على أن المراد بالفطرة الإسلام والتوحيد الخالص له سبحانه يقول الطبرى ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ صبغة الله التى خلق الناس عليها قال أهل التأويل عن ابن وهب عن ابن زيد فى قوله ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ قال الإسلام منذ خلقهم الله من آدم جميعاً يقرون بذلك وقرأ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾[٢]

ويقول ابن كثير عند تفسيره لآية ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ إنه تعالى فطر خلقه على توحيده ومعرفته وأن لا إله غيره[٣]

ويؤيد ما ذهب إليه المفسرون ما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة هل ترى فيها من جدعاء ؟"[٤]

يقول ابن حجر " وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام. قال ابن عبد البر وهو المعروف عند عامة السلف، وينقل عن القرطبى فى المفهم ما يؤيد أن المراد بالفطرة الإسلام والدين الحق[٥].

ويؤيده ما رواه مسلم بسنده عن عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم فى خطبته" ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢

(٣) تفسير الطبرى المجلد العاشر ص ٢٦/ ٢٧دار المعرفة وانظر الرازى ج ٢٥/ ٢٦ ص ١٢٠

(٤) فتح البارى ج ٣ ص ٣٩٣ / ٣٩٤

(٥) نفسه ج ٣ ص ٣٩٣/ ٣٩٤

علمنى يومى هذا. كل مال نَحَلْتُه عبداً حلال. وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً "[١] وهذا الحديث أصل عظيم في الدلالة على أن الناس كلهم منذ آدم عليه السلام كانوا على الحنيفية أى الإسلام وقيل كانوا مستقيمين منيبين لقبول الهداية أما قوله (وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم) أى استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم فى الباطل كذا فسره الهروى فى رواية فاختالتهم أى يحبسونهم عن دينهم ويصدونهم عنه [٢]

ومن الآيات التى يستدل بها على أن الناس كانوا على التوحيد وأنهم فطروا عليه قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [٣]

يقول ابن كثير " إن المراد بهذا الإشهاد هو إنما فطرهم على التوحيد كما فى حديث أبى هريرة ما من مولود إلا ويولد على الفطرة . ولهذا قال من بنى آدم ولم يقل من آدم، وقال من ظهورهم ولم يقل من ظهره. والمراد أن الله جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، ودل على أنهم فطروا على التوحيد ولهذا قال أن تقولوا أى لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا " أى التوحيد غافلين [٤]

ويذكر " القاسمى " أن الله فى هذه الآية أخبر أنه فطر الخلق كلهم على معرفته بفطرة التوحيد حتى من خلُق مجنوناً مطبقاً لا يفهم شيئاً ما يحلف إلا به ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس فطرة بالغة[٥]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦/ ١٧ ص ١٩٧ باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار

(٢) نفسه

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٢-١٧٣

(٤) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٦٣/ ٢٦٤ وانظر مختصر تفسير البغوى ج ١ ص ٣٢٢/ ٣٢٣

(٥) محاسن التأويل للقاسمى ج ٥ ص ٢٩٧ / ٢٩٨ دار الفكر

وعلى نفس النهج سار صاحب المنار حيث ذكر عشرة وجوه للدلالة على أن هذا الإشهاد بالفطرة والرسل لا وجه بعده في إقامة الحجة على من أشرك [(١)]

إن دلالة الفطرة على وجود الله ووحدانيته تحل لنا كثيراً من الأمور التي نبحث لها عن حل سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة.

أولاً: على مستوى الفرد

إن أي إنسان ملحد بالتأمل في حياته نجد أنه يتمرد على الاعتقاد في وحدانية الله طالما أنه غارق في نعيمه سبحانه يقول سبحانه ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ أي ليتجاوز حده ويستكبر على ربه أن رأى نفسه غنياً قال الكلبي: يرتفع عن منزلة إلى منزلة في اللباس والطعام وغيرهما [(٢)]

يظل هكذا معرضاً حتى إذا أدركته نعمة الله وبلائه ليصحو من غفلته بنقمة قارعة تتبدد بها وسائل الاستغناء عن الله كأن يتعرض لحريق عاصف أو غرق يائس فإن الحوائل التي كانت تحول بينه وبين فطرته تسقط تلقائياً، ويجد نفسه وجهاً لوجه أمام حقيقة الاعتراف بوجود الله ووحدانيته[(٣)]. لأن الدافع الفطري أو الإحساس بأن الله هو المنقذ عميق وقوي ومسيطر على النفس البشرية، ويظهر هذا الشعور حين يمس الإنسان أدنى بلاء [(٤)]

ثانياً: على مستوى الجماعة والشعوب

فإن المتأمل في أحوالهما في جميع مستوياتها وأطوارها الاجتماعية يجد أنها تعتنق عقيدة في الله مما يدل على أن ذلك أمر مفطور عليه البشر وإن الانحراف الذي تتعرض له الشعوب إنما هو نوع من تشويه الفطرة يقودها إلى الشرك بالله لا إلى إنكار وجوده أو هو من الكبت يقودها إليه طائفة من الحكام يريدون لها أن تهبط من عبودية الله إلى عبودية البشر [(٥)]

---

(١) انظر تفسير المنار ج ٩ ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ دار المعرفة للطباعة والنشر.
(٢) انظر مختصر تفسير البغوي ج ٢ ص ١٠٢٥ والآية من سورة العلق الآية ٦، ٧
(٣) انظر مختصر تفسير البغوي ج ٢ ص ١٠٢٥
(٤) انظر المنهاج القرآني ص ٨٨/ ٨٩ لأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي وانظر نهاية الأقدام للشهرستاني ص ١٢٤، ١٢٥.
(٥) انظر مداخل إلى العقيدة ص ١٣٨ لأستاذنا الدكتور يحيى هاشم

ولكن تظل مع ذلك كله الفطرة كقوة غلابة لا تزيدها المقاومة إلا عنفاً واشتعالاً إن قوة الفطرة لا حد لها فهى ما إن مسها إزاء الكون الهائل والدقيق المتمثل فى تفصيلات الأجرام وتنظيماتها ودورة أفلاكها من يوقظها استيقظت كالعملاق وقد يكون ذلك الشيء روعة يحسها الإنسان. وقد يكون لحظة من يقظة الوجدان أو أزمة من الأزمات مثل الموت الذى يروع الحس البشرى ويلجئه للبحث عن واهب الحياة. ثم هناك روعة حدوث الأحداث: الليل والنهار الزمان والمكان والموت والحياة والصحة والمرض والغنى والفقر واللذة والألم والسعادة والشقاء كلها توقيعات يوقعها خالق الكون على الحس البشرى فتوقظ فطرته إلى الله.

والإسلام يقيم نظامه كله على هاتين الحقيقتين المتقابلتين:

حقيقة وجود الخالق، وحقيقة توجه الفطرة إليه فهو يمنح الإنسان عقيدة فى الله تلبى فطرته المتوجهة إلى الله ، وتصحح الفطرة وتقومها من خلالها إن ضلت عن حقيقة الله. عقيدة تلبى حاجة الإنسان الفطرية إلى الله، وحاجاتها الفطرية إلى عبادته وحاجاتها الفطرية إلى التعرف على مركزها من الحياة والكون وعلى حقيقة الصلة بينها وبين الله [١]

---

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ٩٥ وانظر المعالجة القيمة للأستاذ محمد قطب ـ التطور والثبات ص ١٨٣، ١٨٤ وانظر الدين والفطرة فى كتاب دراسات فى النفس الإنسانية

المسألة الثانية: استمرارية التوحيد من آدم إلى نوح عليه السلام

من الآيات ذات المغزى العميق والدلالات الواضحة على أن الأصل هو توحيد الله سبحانه وتعالى، وأن الطارئ هو الشرك والوثنية عكس ما يقوله التطوريون قول الله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١] هذه الآية أصل كبير يستدل به جمهور العلماء على أن الناس كانوا على التوحيد. أمة واحدة على الحق والهدى من لدن آدم عليه السلام إلى أول رسول وهو نوح عليه السلام.

واستدل الجمهور على ما ذهبوا إليه بأدلة عقلية ونقلية ولغوية ولكن ذهب البعض إلى خلاف رأى الجمهور وقالوا بأن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر واستدلوا ببعض ما أُثِر عن الصحابة والتابعين من آثار فممن ذهبوا إلى أنهم كانوا أمة واحدة على الكفر الحسن وعطاء وأحد قولى ابن عباس عنهم أنهم قالوا: كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمة وأحدة على ملة الكفر أمثال البهائم فبعث الله نوحاً وغيره من النبيين[٢]

وممن ذهب إلى هذا الرأى فى العصر الحديث الإمام محمد عبده وقد نقل رأيه الأستاذ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[٣] يقول رحمه الله " حمل جمهور العلماء من المفسرين لفظ الأمة فى الآية على الملة ثم اختلفوا فيم كانت الملة فقال جمهورهم: أنها ملة الهدى والدين القويم فيكون معنى الآية فى رأيهم كان الناس أمة واحدة أى ملة واحدة قيمة الدين صحيحة العقيدة جارية فى أعمالهم على

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣

(٢) تفسير البغوى ج ١ ص ٧٥

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٣

أحكام الشرائع ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[١]

يقول رحمه الله " ولما وجدوا أى (الجمهور) أن المعنى لا يكون قويماً لأنه لا معنى لإرسال الرسل إلى الأمم الصالحة المهتدية ليحكموا بينهم فيا اختلفوا فيه إذ لا يتأتى الاختلاف الذى يحتاج فى رفعه إلى رسالة الرسل مع استقامة العمل والوقوف عند حدود الشرائع. قالوا لابد من تقدير فى العبارة فيكون الكلام كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنت ترى أن هذا بمنزلة أن تقول " كان زيد عالماً فبعثت إليه من يعلمه ما كان نسيه من معلومات أو كان عاملاً فترك العمل فأرسلت إليه من يعظه فى العودة إلى ما ترك من عمله وتقول إن كلامى على تقدير كان عالماً فنسى أو كان عاملاً فترك العمل فبعثت إليه أو أرسلت إليه، وهو مما لا يقبله ذوق عربى " والملاحظ أن الإمام محمد عبده يستخدم كل الوجوه الممكنة لصرف قول الجمهور أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق. ويعرض رأى من قال بأنهم كانوا أمة واحدة على الكفر والضلال يقول : والآية لم تحدد زمن كان الناس أمة واحدة وغاية ما فى الأمر أن يكون النبيون المبعوثون مخصوصين بغير آدم أو نوح. إذا حملت الأمة الواحدة على أمة الضلال والفساد ولذلك ذهبت طائفة أخرى وفى مقدمتهم ابن عباس وعطاء والحسن إلى أن الأمة الواحدة أمة الضلال التى لا تهتدى بحق ولا تقف بأعمالها عند حد الشريعة واحتجوا على قولهم بهذا التعقيب فى الآية فإنه جعل بعثة الرسل تابعة لوحدة الأمة، ولا تكون تلك الوحدة قاضية بالحاجة إلى إرسالهم ليحكموا بينهم فى الاختلاف الذى يقع فيهم بسبب الفساد فى العقائد والذهاب مع الأهواء الضالة فى الأعمال واعتداء بعضهم على بعض لذلك. وانتهاكهم حرمة ما أمر الله برعاية حرمته فيجب أن تكون وحدة الأمة وحدة فى الباطل حتى يرد عليه الحق فيزهقه وأما لو كانت الأمة واحدة فى الهدى واتباع الحق فلا معنى لجعل بعثة الرسل مترتبة عليها كما هو ظاهر، ودفعوا ما يقال من أن آدم كان نبياً وكان أولاده ممن بقى على شريعته فكيف يقال إن الناس كانوا أمة واحدة على الباطل؟ دفعوه بأن الحكم على الغالب فقد كان الناس لعهد نوح كفاراً إلا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣

القليل منهم ومن المعروف أنه يقال دار كفر لمن كان أغلب سكانها كفاراً وإن كان فيها مسلمون " [١] ويستند رحمه الله على بعض أقوال المفسرين التى تذهب إلى أن كان فى الآية للثبوت لا للمضى. وقد ذهب إلى هذا " ابن العادل " نقلاً عن " القرطبى" يقول : ونحن ذاكرون لك إن شاء الله ما يجلى المعنى فى الآية مقتفين أثر ابن العادل والقرطبى فيما قالاه فى معنى (كان) وأنها للثبوت لا للمضى "[٢] ويتتبع وصف الأمة فى القرآن الكريم ليخلص إلى أن الأمة فى الآية كانت على الضلال لا على الحق ثم يتحدث عن الحكمة والغاية من إرسال الرسل وأن الناس لا يستغنون عن هدى الله عن طريق الأنبياء يقول " فلما كان الناس أمة واحدة ولا يمكن أن يكونوا بمقتضى فطرهم إلا كذلك وهم إنما يعملون بمقتضى آرائهم وينحون فى أعمالهم نحو المنافع التى يرونها لازمة لقوام معيشتهم ولم يمنحوا من قوة الإلهام ما يعرف كلاً منهم وجه المصلحة فى حق غيره لتوفير المنفعة بذلك لنفسه لما كانوا كذلك كان لابد من الاختلاف، وكان من رحمة الله بهم أن يُرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين " [٣] وهكذا رأينا الإمام محمد عبده ينتصر للرأى القائل بأن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر والضلال. ويعمل جاهداً لترجيحه فيتابع رأى من قال بأن (كان) فى الآية للثبوت كما فى قوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وليست للمضى. ثم نراه يبين أن التقدير الذى ذهب إليه الجمهور فى الآية " فاختلفوا " غير مقبول من ناحية الذوق اللغوى فإذا كنت لا تراه لائقاً بكلامك فكيف تجده لائقاً بكلام الله أبلغ الكلام وأولى قول بملك العقول والأفهام " [٤] وسوف نعرض رأى الجمهور فى تفسير هذه الآية ونرجح ما نراه.

وذهب آخرون مثل قتادة وعكرمة وأحد قولى ابن عباس إلى أنه: كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى ثم اختلفوا فى زمن نوح فبعث الله نوحاً فكان أول نبى بُعث ثم بعث بعده النبيين [٥]

---

(١) انظر تفسير المنار ج ١ ص ٢٢١، ٢٢٢
(٢) نفسه ج ١ ص ٢٢٣ـ ٢٢٤
(٣) نفسه
(٤) تفسير المنار ج ١ ص ٢٢٤
(٥) نفسه وانظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٠ وانظر الطبرى ج ٤ ص ٢٧٥

يعرض هذا الخلاف إمام المفسرين الطبرى بقوله (كان الناس أمة واحدة) كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين فكان أول نبى بعث نوح عليه السلام فكان تأويل الآية على معنى قول هؤلاء : كان الناس أمة مجتمعة على ملة واحدة ودين واحد فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأصل الأمة الجماعة تجتمع على دين واحد ثم يكتفى بالخبر عن الأمة من الخبر عن الدين لدلالتها عليه كما قال جل ثناؤه ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[1] يراد به : أهل دين واحد وملة واحدة فوجه ابن عباس فى تأويله قوله **(كان الناس أمة واحدة)** إلى أن الناس كانوا أهل دين واحد حتى اختلفوا. هذا الدين الذى كانوا عليه دين الحق كما قال أبىّ بن كعب[2] لكن فى أى الأوقات كان الناس على دين واحد ثم اختلفوا؟ يجيب الطبرى: يجوز أن ذلك الوقت الذى كانوا فيه أمة واحدة من عهد آدم إلى عهد نوح عليهما السلام كما روى عكرمة عن ابن عباس وكما قاله قتادة، وجائز أن يكون ذلك حين عرض على آدم خلقه، ويجوز أن يكون ذلك فى وقت غير ذلك[3].

ثم يقرر أنه لا دلالة من كتاب الله ولا خبر يثبت به الحجة على أى هذه الأوقات كان ذلك. ويرى أن الأولى القول بما قال عز وجل من أن الناس كانوا أمة واحدة فبعث الله فيهم لما اختلفوا الأنبياء والرسل ولا يضرنا الجهل بوقت ذلك[4] ثم ينفذ إلى ما يراه حقاً وأولى بالقبول فيقول " غير أنه أى ذلك كان فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به ذلك أن الله قال فى سورة يونس ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[5] فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة ولو

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨

(٢) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩

(٣) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩

(٤) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩

(٥) سورة يونس الآية ١٩

كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان ولو كان ذلك لكان الوعد أوْلى بحكمته جل ثناؤه فى ذلك الحال من الوعيد لأنها إنابة بعضهم إلى طاعته، ومحال أن يتوعد فى حال الإنابة ويترك ذلك فى حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك "[١] وهذا ملخص جيد فى فهم الآية من إمام المفسرين " الطبرى " إذ المناسب أن يتوعدهم الله على الاختلاف فدل ذلك على أنهم انحرفوا عن التوحيد إلى الشرك الأمر الذى استدعى إرسال الأنبياء والرسل. وفى جميع ما نقلناه عن الطبرى نراه ينزع إلى ترجيح أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق لكن الذى توقف فيه الوقت الذى كانوا فيه أمة واحدة. فلم يحدده ولكن هذا الوقت أورده ابن كثير فيما روى عن ابن عباس كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، وهذا الأثر عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى كما يذهب ابن كثير[٢] فى تفسيره وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال " وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام "[٣] والمقصود بالإسلام هنا إسلام الوجه لله وتوحيده وطاعته.

أما الرازى فى تفسيره فيستدل باللغة والعقل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق. ويدلل على ذلك بوجوه منها :

أولاً : ما ذكره القفال من الدلالة بقول الله تعالى (فبعث الله النبيين) فهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا حين الاختلاف ويتأكد هذا بقوله ﴿ **وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ** ﴾ ويتأكد بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ إذا عرفت هذا فنقول الفاء فى قوله (**فبعث الله النبيين**) تقتضى أن يكون بعثهم بعد الاختلاف ولو كانوا قبل ذلك أمة واحدة فى الكفر لكانت بعثة الرسل قبل هذا الاختلاف أوْلى لأنهم لما بُعثوا عندما كان بعضهم محقاً وبعضهم مبطلاً. فلأن يُبعثوا حينما كان كلهم مبطلين

---

(١) تفسير الطبرى ج ٤ ص ٢٧٩-٢٨٠

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٠

(٣) انظر العقيدة فى الله ص ٢٤٦

أوْلى، ويعلق الرازى على ما ذكره القفال بقوله " والوجه الذى ذكره القفال حسن فى هذا الموضوع".

ثانيها: أنه تعالى حكم بأنه كان الناس أمة واحدة فاختلفوا بحسب دلالة الدليل عليه وبحسب قراءة ابن مسعود ثم قال سبحانه **(وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه)** والظاهر أن المراد من هذا الاختلاف هو الاختلاف الحاصل بعد ذلك الاتفاق المشار إليه بقوله(كان الناس أمة واحدة) ثم حكم على هذا الاختلاف بأنه إنما حصل بسبب البغى وهذا الوصف لا يليق إلا بالمذاهب الباطلة، وهذا يدل على أن الاتفاق الذى كان حاصلاً قبل هذا الاختلاف إنما كان فى الحق لا فى الباطل.

ثالثها: أن آدم عليه السلام لما بعثه الله رسولاً إلى أولاده فالكل كانوا مسلمين مطيعين لله تعالى ولم يحدث فيما بينهم اختلاف فى الدين إلى أن قتل قابيل هابيل بسبب الحسد والبغى وهذا المعنى ثابت بالنقل والتواتر والآية منطبقة عليه كما يقول الرازى[١].

بهذه الوجوه اللغوية والنقلية والعقلية رجح " الرازى " أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق لا على الضلال. تبقى مسألة الوقت والمدة التى ظلوا فيها على تلك الحالة. لم يتعرض " الرازى " لها. وإن كان عندنا النص الثابت عن ابن عباس كما رواه البخارى بأن المدة كانت عشرة قرون على خلاف فى مدة القرن . " ثمانون سنة وقيل ثلاثون سنة، والقرن فى الناس أهل زمان واحد أو هو الجيل من الناس يقول تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾[٢] ويقول تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[٣].

وهذا القرن معناه الجيل من الناس أو أهل الزمن الواحد[٤].

وقد ثبت أن أول نبى بعد آدم عليه السلام هو نوح[٥] فتكون تلك الفترة على التوحيد الذى جاء به آدم وترك أبناءه عليه. ونحن إذ نرجح أن الناس كانوا أمة واحدة

(١) معركة التقاليد ص ٧٨ـ ٧٩ دار الشروق
(٢) سورة الإسراء الآية ١٧
(٣) سورة المؤمنون الآية ٣١
(٤) مختار الصحاح ص ٤٧٥ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤م وانظر العقيدة فى الله ص ٢٤٧
(٥) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٣٠ ـ ٣٢

على التوحيد لنقطع الطريق على من ذهبوا إلى أن الإنسان بدأ بالوثنية وانتهى بالتوحيد. ونقول لهم هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إإتونا بعلم إن كنتم صادقين. إن التوجه إلى المظاهر المادية من أوثان ومظاهر طبيعية كان بعد أن بَعُدَتْ بالإنسان المسافة عن مصدر الدين التوحيدى فانحدر من الألوهية إلى المادية[١]. لأن العقيدة فى الله عنصر ثابت فى النفس البشرية. عنصر قائم فى صميم الفطرة يهدى البشرية إلى خالقها وإنما الانحراف الذى يحدث هو انحراف فى طريق تصور الله، ومهمة الأنبياء والرسل دائماً هى هداية البشرية إلى الطريق المستقيم الذى ينبثق منه المشاعر الصحيحة، والسلوك الصالح والتنظيم السليم وليس صحيحاً أنه مرت على البشرية سلسلة منتظمة من العقائد الضالة أدت فى النهاية إلى التوحيد إنما الثابت من التاريخ أن البشرية مرت فى دورات متعاقبة من الهدى والضلال من التوحيد والتعدد من التجريد والتجسيم[٢].

على أننا يمكن أن نقلب نظرية التطور فى الدين بالمفهوم الغربى رأساً على عقب حين نقرر ومعنا النقل والعقل فى ذلك. أن الذى تطور لم يكن العقيدة فى الله وإنما كان انحراف العقيدة فى الله. حين عبدت البشرية مظاهر الطبيعة وعبدت الطوطم كانت فى ذلك تنحرف عن العقيدة الصحيحة فى الله، وتتصوره تصورات شتى منحرفة. ومن الثابت فى التاريخ وأغفله علم الاجتماع الغربى أن البشرية فيما بين انحرافاتها المتكررة قد مرت بفترات فاءت فيها إلى العبادة الصحيحة عن طريق الرسالات السماوية قبل أن تعود مرة أخرى إلى الانحراف بعد تقادم الزمن وتباعد العهد عن الوحى[٣]

---

(١) انظر الحكمة العربية فى أصالتها الفطرية ص ٣٤٨ لأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلى

(٢) معركة التقاليد ص ٧٨- ٧٩ دار الشروق

(٣) التطور والثبات فى حياة البشرية ص ١٨٦ محمد قطب - دار الشروق

المسألة الثالثة: إرسال الرسل

من الآيات ذات المغزى العميق فى الدلالة على أن الناس كان عندهم توحيد، وأن أى جماعة بشرية فى أى منطقة من العالم. إذا وجد عندهم توحيد أو بقايا من التوحيد فليس ذلك مرده إلى التطور عن التعدد والوثنية - وليس ذلك مرده إلى التقدم الفكرى والعقلى - وإنما مرده بالإضافة إلى ما ذكر من الفطرة، والميثاق الذى أخذه الله على بنى آدم، وكونهم كانوا أمة على التوحيد. إلى أن حدث فيهم الشرك.

إرسال الأنبياء والرسل.

يقول تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [١]

يقول الطبرى " إن أرسلناك يا محمد بالحق وهو الإيمان بالله وشرائع الدين التى افترضها الله على عباده بشيراً يقول مبشراً بالجنة من صدقك وقبل منك ما جئت به من عند الله من النصيحة (**وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**) أى وما من أمة من الأمم الدائنة بملة إلا خلا فيها من قبلك نذير ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله.

وعن قتاده (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) كل أمة كان لها رسول "[٢] لتذكير بنى آدم من جديد بعقيدة التوحيد الذى فُطروا عليه.

وبصيغة الحصر والقصر يبين " ابن كثير " أنه ما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [٣]

وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [٤] ومما تجدر الإشارة إليه أن نوحاً عيه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض.

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤ وانظر الإنسان فى ظل الأديان ص ٢٤٧

(٢) تفسير الطبرى المجلد العاشر ص ٨٦ وانظر الإسلام والأديان ص ٢٩

(٣) سورة الرعد الآية ٧

(٤) سورة النحل الآية ٣٦

روى البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال " يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول : لست هناكم ويـــذكر ذنبه فيستحى. أئتوا نوحـــاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهـل الأرض "(١) والشاهد هنا النص الصحيح والصريح على أن نوحاً عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض.

وقد أرسله الله ليدعو الناس إلى التوحيد قـال تعـــالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٢)

ولكن قوم نوح لما كذبوه وكانت النهاية أهلكهم الله بالطوفان يقول تعالى ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٣)

وجمع الرسل بالرغم أنهم ما كذبوا إلا رسولاً واحداً وهو نوح عليه السلام لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل فلذلك ذكر بلفظ الجمع (٤) وبعد نوح عليه السلام خلت الأرض من الظالمين ولم يبق فيها إلا الموحدون فلما انحرفوا عن التوحيد أرسل الله إليهم رسولاً يقول تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (٥) قيل هود وقومه وقيل صالحاً وقومه والأول أظهر كما يذكر البغوى (٦) وقد استمرت رحمة الله ورعايته لبنى آدم كلما ضلوا وزاغوا أنزل إليهم الوحى ليضئ لهم الظلمات ويهديهم إلى صراطه المستقيم (٧) يقول تعالى

---

(١) البخارى باب قول الله (وعلم آدم الأسماء كلها) انظر فتح البارى ج ٨ ص ١٠
(٢) سورة نوح الآية ١-٣
(٣) سورة الفرقان الآية ٣٧
(٤) مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٦٦٠
(٥) سورة المؤمنون الآية ٣١-٣٢
(٦) مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٦٢٤
(٧) العقيدة فى الله ص ٢٤٧/ ٢٤٨

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) أى مترادفين يتبع بعضهم بعضاً غير متواصلين لأن بين كل نبيين زماناً طويلاً وهى فُعْلَى من المواترة قال الأصمعى: يقال واترت الخبر إذا أتبعت بعضه بعضاً وبين الخبرين مهلة (٢)

ولكن يبين الله عز وجل أن كل أمة إذا جاءها رسولها كذبوه وكان الجزاء حاضراً. يقول تعالى ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣)

وكان التذكير بمصير المكذبين نذيراً لأهل مكة ومن بلغه القرآن إلى قيام الساعة يقول تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (٤) قال ابن مسعود: عضوا على أيديهم غيظاً قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم قال قتادة ومجاهد: كذبوا الرسل وردوا ما جاءوا به، وهذه الآية وغيرها تدل على أن الرسل الذين أرسهلم الله إلى الأمم من بعد نوح، وهود، وصالح لا يعلمهم إلا الله (٥) وهذا كقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (٦) والله سبحانه يعرض أحوال المكذبين يوم القيامة وهم يقرون ويعترفون بأن الرسل قد جاءتهم.

يعرض القرآن الكريم موقف الكفار فى نار جهنم يقول تعالى ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٤٤
(٢) مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٦٢٥
(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٠
(٤) سورة إبراهيم الآية ٩
(٥) تفسير البغوى ج ١ ص ٤٦٩
(٦) سورة غافر الآية ٧٨

ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ (١) والمقصود بالرسل فى الآية الرسول الذى يبعث من عند الله للإنذار (٢)

وهذه الكثرة من الرسل الذين أرسلوا إلى أممهم يوضحها العدد الكبير الذى حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنبياء فيما صححه ابن حبان عن أبى ذر مرفوعاً " أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر "(٣)

وكان هذا الجم الغفير من الأنبياء لتذكير الناس بالتوحيد وبالميثاق الذى أخذ عليهم من الله أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً.

ولله الحكمة البالغة فى إرسال الأنبياء والرسل، وقد التفت إلى هذا المعنى علماء الإسلام قديماً " كالغزالى " وغيره فذكروا أن البشرية كانت فى أمس الحاجة إلى الرسالة لأنهم يأتون بما لا تستقل به العقول. مثل ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحيل عليه من النقص، وما يجوز أن يتصف به ومثل المعاد الجسمانى وتعيين الحدود، وتعليم ما ينفع وما يضر من الأعمال وكذلك معرفة تفاصيل الثواب للمحسن والعقاب للعاصى لأن العقل فى هذه الأمور لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأخلاق والعقائد، ولا يفرق بين الشقى والسعيد فكان من لطف الله بعباده أن يرسل لهم رسلاً يبين لهم مالا يستطيعون الاستقلال به بعقولهم (٤). ثم كانت الحكمة البالغة فى إرسال محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل كخاتم للأنبياء والمرسلين ومتفرد دون غيره من الأنبياء بعموم رسالته صلى الله عليه وسلم للثقلين إلى أن تقوم الساعة. يقول سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الملك الآية ٨ ـ ٩

(٢) انظر مختصر تفسير البغوى ج ٢ ص ٩٥٦و انظر العقيدة فى الله للأشقر ص ٢٤٩

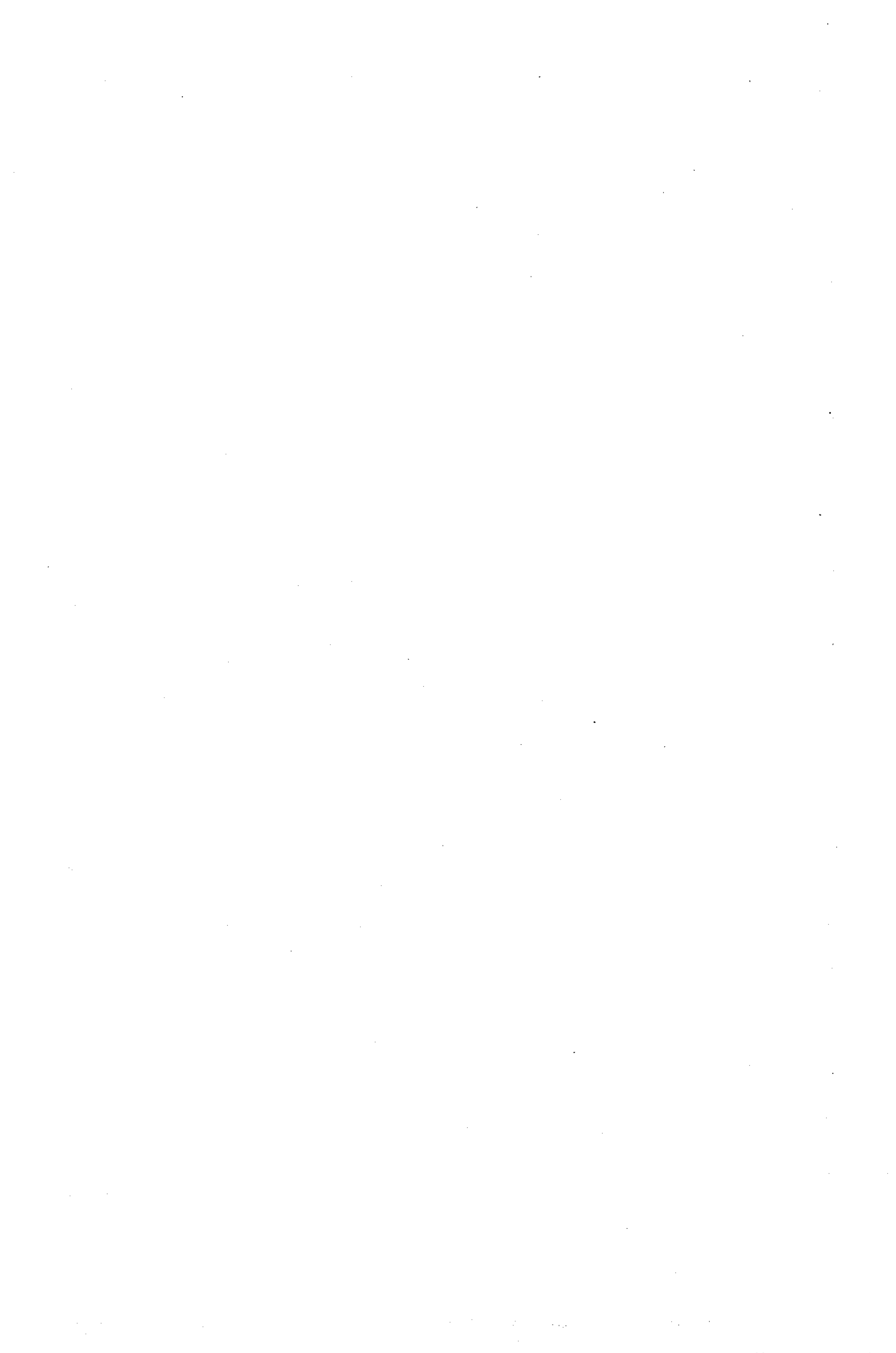
(٣) فتح البارى ج ٦ ص ٣٦١ كتاب أحاديث الأنبياء

(٤) انظر الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ـ والمواقف لعضد الدين الإيجى ص ٣٤٥، والمقاصد للسعد التفتازانى ج ٢ ص ١٢٨

(٥) سورة سبأ الآية ٢٨



العلم التجريبي والدين



المبحث الأول:
المذهب الوضعى وشبهه فى إنكارالدين

تمهيد:

هل يستغنى بالعلم التجريبى عن الدين؟

منذ أن ظهرت الاكتشافات العلمية، وهناك اتجاه فى الغرب يسعى جاهداً لإبعاد الدين، والإكتفاء بالعلم التجريبى، وما يكشف عنه من أسرار الطبيعة وكانت هذه الاتجاهات تأخذ أشكالاً مختلفة فى وسائلها. متحدة فى غاياتها. فالبعض يعترف بالألوهية ولكنه يطرحها جانباً، والبعض الآخر لا يعترف أصلاً بعالم الغيب وما فيه وما يعبر عنه، وكان الدافع وراء هذه الاتجاهات كلها هو الاغترار بالعلم والاستغناء به عن غيره من شتى التوجيهات و عبر البعض صراحة عن ذلك من هؤلاء (ديفيد هيوم) ١٧١١ ـ ١٨٨٦ م [١] الذى انتقد الأدلة على وجود الله وتساءل لم لا تمد المادة نفسها إلى غير نهاية فنعتبرها الله؟ ولماذا نبحث للكون عن علة مفارقة واعتبر أن كل الأعمال العقلية ترجع إلى الترابط الآلى، وتفانى فى المناداة بالعلم التجريبى إلى أقصى حد حين قال بضرورة إحراق كل كتاب لا يقوم على الرياضة والتجربة [٢] وقد نشط الاتجاه التجريبى القائم على الملاحظة والتجربة لسببين:ـ

الأول: الانحلال الذى أصاب فلسفة هيجل الميتافيزيقية

الثانى: الأثر الذى أحدثته التجارب والمشاهدات العلمية الحديثة فى الصلة بين النفس والجسم [٣]

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص ٢٩٧

(٢) أسس الفلسفة ٢٤١

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٣٢ ـ ٣٢٣٣

وقد بلغت النزعة التجريبية المُستبعدة للدين أوجَها فى المذهب الوضعى الذى يعرف بأنه المذهب " الذى لا يعتبر شيئاً حقيقياً واقعياً إلا ذلك الموضوع الوضعى الذى جاء أثراً لتجارب الحس ويمكن مع ذلك اختباره بالحس "(١)

ويُعد " أوجست كونت " هو الذى قَعّدَ القواعد وأصَّل الأصول للمذهب الوضعى بعد أن أخذ أصوله من " سان سيمون " ، و"شارل فوريه " ، وقد ذهب " كونت " إلى أن الشرط الأول للنجاح فى صياغة المجتمع إعادة وحدة الاعتقاد إلى العقول كما كان الحال فى العصر الوسيط لكن بواسطة العلم لا بواسطة الدين لقد أراد أن يصل إلى العلم ويستعين به وحده فى تحقيق الهدف المنشود ، والعلم الذى يريد أن يصل إليه هو الذى لا يطلب الحقائق الثابتة أو المطلقة لأن ذلك فوق طاقة العلم وعلى غير طبيعته ولذلك فإن ما سماه " كونت " بالعلم الوضعى يتجنب البحث عن أسباب الأشياء وعللها ، وعن جواهرها وحقائقها ويتجه إلى استنباط القوانين التى تحكم هذه العلاقات (٢)

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ص ٣٠٠

(٢) انظر تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٦ والفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر ص ١٦٤ / ١٦٥

المسألة الأولى: قانون الحالات الثلاث " لأوجست كونت " (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧م)

تقوم فكرة الأطوار الثلاثة عند كونت على فكرة مؤداها أن العقل الإنسانى لا يدرك سوى الظواهر الواقعة المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين وأن المثل الأعلى يتحقق فى العلوم التجريبية ، ومن ثمَّ يجب العدول عن كل بحث فى العلل والغايات [1]

ويعبر " كونت " عن قانون الأحوال الثلاثة بالصيغة الآتية " بناءً على طبيعة العقل الإنسانى لابد لكل فرع من فروع معلوماتنا من المرور فى تطوره بثلاث حالات نظرية متتابعة. الحالة اللاهوتية أو الخرافية ، والحالة الميتافيزيقية أو المجردة ، وأخيراً الحالة العلمية أو الوضعية [2]

وسوف نعرض لهذه الحالات الثلاث كما عرضها " كونت " لنتبين مدى علمية هذه الأطوار الثلاثة التى أراد " كونت " للأخير منها أن يكون بديلاً عن الدين والغيبيات.

أولاً: المرحلة اللاهوتية "The Ological astage"

يذكر " كونت " أن الإنسان فى هذه المرحلة يبحث فيها عن كنه الكائنات وأصلها ومصيرها محاولاً إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى مبدأ مشترك وقد تدرج فى ذلك درجات ثلاث : كانت الدرجة الأولى " الفيتشية " Fetichisme" يضيف فيها إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان، وكانت الدرجة الثانية تعدد الآلهة ، وهى أكثر الدرجات الثلاثة تميزاً للحالة اللاهوتية يسلب فيها عن الكائنات الطبيعية ما كان خلع من حياة ، ويضيف أفعالها إلى موجودات غير منظورة تؤلف عالماً علوياً ، وكانت الدرجة الثالثة التوحيد أى جمع كثرة الآلهة فى إله واحد مفارق.

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٧

(٢) فلسفة أوجست كونت تأليف ليفى بريل ترجمة د/ محمود قاسم و د / السيد محمد بدوى طبعة ١٩٦٢ نقلاً عن الاتجاهات العلمية المعاصرة ص ١٠

وهذه المرحلة لها خصائص تتمثل فى أن موضوعها مطلق وتفسيراتها فائقة للطبيعة ومنهجها خيالي هذا من الوجهة النظرية أما من الوجهة العملية فقد كانت المعانى اللاهوتية أساساً متيناً مشتركاً للحياة الخلقية والاجتماعية وكانت هذه المرحلة الأولى مرحلة السلطة وسلطة الكهنة وسلطة الملوك [1]

ثانياً: المرحلة الميتافيزيقية

فى هذه الحالة يحاول العقل البشرى أن يبحث عن حقيقة الأشياء وأصلها ومصيرها ولكنه يستبدل بالعلل المفارقة عللاً ذاتية يتوهمها فى باطن الأشياء وما هى إلا معان مجردة جسَّمها له الخيال فقال : العلة أو القوة الفاعلية والجوهر والنفس والحرية والغاية، وما إليها، وبلغت هذه الحالة أوجها فى مذهب وحدة الوجود الذى يجمع فى الطبيعة جميع القوى الميتافيزيقية. والفرق بين الحالة اللاهوتية، والحالة الميتافيزيقية أن المجرد يحل محل المشخص الذى كان فى المرحلة الأولى. ويحل أيضاً الاستدلال محل الخيال ، وهذه المرحلة فترة انتقال ، وأداة انحلال هى فترة نقد عقيم ولكنه ضرورى إذ يتناول الاستدلال المعانى اللاهوتية فيبين التناقض فيها وإذا كان العقل فى هذه الحالة يضع معانى أقوى موضع الإرادات المتقلبة فإنه يضيف من سلطان القوى المفارقة هذا من الوجهة النظرية أما من الوجهة العملية فيبدو الانحلال فى انتشار الشك والأنانية فيفصم الفرد الرباط الذى يربطه بالمجتمع ويثقف العقل على حساب العاطفة ويتصور الاجتماع ناشئاً من تعاقد الأفراد، وتقاوم الدولة على مبدأ سلطة الشعب ويحكمها القانونيون.

المرحلة الثالثة: الوضعية "Positivestage "

فى هذه المرحلة يفسر فيها الإنسان الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة يمكن إدراكها بالمطالعة أو بالمشاهدة العلمية[2] وفى الحالة الوضعية يدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة فيقصر همه على تعرف الظواهر واستكشاف قوانينها. فتحمل هنا الملاحظة محل الخيال والاستدلال، ويستعاض عن العلل

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٧ـ٣١٨

(٢) الإسلام يتحدى ص ٣٣

بالقوانين أى العلاقات المطردة بين الظواهر فيكون موضوع العلم الإجابة عن سؤال " كيف " لا عن سؤال " لمَّ " واعتبر " كونت " أن الذى تقدمه هذه المرحلة يُعد نهائياً. أما المسائل التى لا تقع تحت الملاحظة فهى خارجة عن دائرة العلم [١]

وفى هذه المرحلة لا تذكر " الأرواح والآلهة والقوى المطلقة " ونحن بناءً على هذا نعيش فى المرحلة الثالثة التى تسمى بالوضعية أو التجريبية العلمية (Scientifiempiricism) [٢]

هذا ملخص قانون الأطوار الثلاثة الذى ذهب إليه " أوجست كونت " واختزل جميع المعارف والعلوم فى هذا القانون خاصة المرحلة الأخيرة منه بالذات. وقد سادت هذه الوضعية وانتشرت فى أوربا. وعرف العصر بأنه عصر الوضعية وظهرت عبارات لبعض الأوربيين تؤكد سيادة هذا المذهب وتنفى ما عداه يقول أحدهم " كل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب بحيث يمكن فحصها أو إثباتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة "[٣]

ويذكر " هكسلى " أنه " إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغى أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة"[٤]

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٨ ـ ٣١٩

(٢) الإسلام يتحدى ص ٣٣

(٣) الإسلام يتحدى ص ٣٦

(٤) نفسه ص ٣٦

المسألة الثانية: الأسباب التى أدت إلى سيادة المذهب الوضعى فى أوربا.

لقد ساد الاتجاه الوضعى أو الواقعى وعرف هذا العصر بأنه عصر الوضعية وكان من أسباب سيادته ما يلى :-

أولاً: معارضة الكنيسة التى كانت تملك نوعاً من المعرفة الدينية أو الميتافيزيقية بوجه عام، وذلك لأن الوضعية قامت على أساس تقدير الطبيعة واعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة اليقينية لأن الطبيعة فى نظر الوضعيين هى التى تنقش الحقيقة فى عقل الإنسان وترسم معالمها، والإنسان بناءً على هذا لا يُملى عليه من خارج الطبيعة أى شيء لأن ما يأتى من الميتافيزيقا خداع للحقيقة والدين خداع لأنه وحى ذلك الموجود الذى لا يمثله ولا يحدده كائن من كائنات الطبيعة.

ثانياً: أن الفلسفات التى قامت لمناهضة الدين فى أوربا قد فشلت فى هدفها فى نظر الوضعيين ، ولم تستطع تلك الفلسفات أن تُبعد التوجيه الكنسى كلية عن توجيه الإنسان وتنظيم المجتمع بل على العكس مالت بعض هذه الفلسفات إلى تأييد الدين من جديد ومن ثمَّ رأى الوضعيون أن يعلنوا فلسفتهم حتى يبعدوا الكنيسة نهائياً عن التوجيه، ولكى يحققوا ما عجزت الفلسفات عنه من إبعاد للدين، وسلطان الكنيسة على المجتمع[١].

ثالثاً:- ارتباط الدين بالكنيسة التى وقفت حجر عثرة فى طريق العلم ومن ثمَّ كان المذهب الوضعى خاصة وجميع الاتجاهات المادية والإلحادية رد فعل خاطئ وطارئ لموقف خاص. وليست هذه الفكرة نتيجة نظرة موضوعية لكل من العلم والدين [٢]

وقد تسرب رذاذ من المذهب الوضعى إلى العالم الإسلامى وتبناه البعض ودافع عنه يقول " إسماعيل مظهر " : إن قانون الدرجات الثلاث الذى كشف عنه

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٣٤٢-٣٤٣

(٢) الإسلام والعلم التجريبى ص ٩٧ د فاروق الدسوقى - المكتب الإسلامى بيروت

الفيلسوف " أوجست كونت " لأكبر استكشاف وصل إليه العقل البشرى فى الطبيعة الإنسانية "[١] هذا ما يقوله " إسماعيل مظهر " عن قانون الحالات الثلاث الذى تناوله الغربيون بالنقد اللاذع بل إن " كونت " نفسه قد هدمه علميًا بابتداعه ديانة الإنسانية. يقول أستاذنا الدكتور يحيى هاشم معلقاً على اتجاه إسماعيل مظهر " لقد أفصح عن كراهية عميقة عارمة للإيمان بالغيبيات فيما أورده. وينقل عنه قوله " عسى أن يكون قريباً أن الخطوة التى خطوناها فى سبيل الخروج من ظلمات الأسلوب الغيبى إلى وضح الأسلوب اليقينى سوف تقودنا إلى ميدان يتصادم فيه الأسلوبان تصادماً يثير فى جو الفكر عجاجة ينكشف غبارها عن الأسلوب الغيبى وقد تحطمت جوانبه واندكت قوائمه "[٢]

ومن الذين تأثروا بالمذهب الوضعى الدكتور " زكى نجيب محمود ". فى كتابه " خرافة الميتافيزيقيا " الذى عدل عنوانه فيما بعد ليصبح " موقف من الميتافيزيقيا " وله كتاب آخر يقرر فيه المذهب الوضعى ويتابع فيه الفكر المادى الغربى هذا الكتاب هو " المنطق الوضعى " [٣]

وسوف ننقل بعض فقرات مما كتبه الدكتور زكى نجيب محمود. فى كتابه خرافة الميتافيزيقيا.

بداية يعرف الميتافيزيقيا بأنها " البحث فى أشياء لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً لأنها أشياء بحكم تعريفها لا يمكن أن تدرك بحاسة من الحواس "[٤] يذكر الدكتور البهى رحمه الله أن الكاتب لم يذكر فى سطر واحد فى كتابه أن المراد من البحث فى الأشياء التى لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً (الفلسفة الميتافيزيقية) دون الحقائق الدينية حتى لا يدخل الدين ورسالته والإسلام وتعاليمه فيما يبحثه

---

(١) تاريخ الفكر العربى ص ١٠٩ نقلاً عن الاتجاهات العلمية ص ١٦

(٢) تاريخ الفكر العربى ص ١١٥ لإسماعيل مظهر نقلاً عن الاتجاهات العلمية ص ١٨ . تذكر بعض المصادر أن إسماعيل مظهر تاب إلى الله ورجع عن مناصرته للإلحاد أنظر الموسوعة الميسرة ج ٢ ص ٨١٤

(٣) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب ج ٢ ص ٨٢١

(٤) خرافة الميتافيزيقيا ص ١١

ولكنه عمم ولم يقيد . يقول الدكتور زكى نجيب محمود " العبارة الميتافيزيقية التى تخبرنا عن شئ غير محس عبارة فارغة من المعنى لسبب بسيط : وهو أنها ليست مما يجيز المنطق أن يكون كلاماً على الإطلاق. فمتى يُقبل الكلام عند المنطق؟ يُقبل الكلام إذا كان لدى السامع وسيلة لتحقيقه فإما أن يصدقه بعد التحقيق أو يكذبه أما الكلام الذى يستحيل بطبيعة تركيبه أن نتصور وسيلة لمراجعة صدقه أو كذبه فهو كلام خلو من المعنى "(١) هكذا بدون تحديد يلغى كل مالا يقع تحت الحس والمشاهدة ـ من دائرة الحقيقة ـ ونحن نتساءل ما هى الوسيلة الحسية التى يتحقق الإنسان من خلالها لوجود الملائكة أو الجن أو الحور العين ناهيك عن كلمة الله؟ إن الكاتب يعمم ولا يقيد كما فعل فلاسفة الغرب (٢) وكثرة تداول اللغة ووجودها فى القواميس يزيد الناس إيماناً بأنها يستحيل أن تكون مجرد ترقيم أو مجرد صوت بغير دلالة. لكن التحليل يبين لك أن مئات من الألفاظ المتداولة والمسجلة فى القواميس ألفاظ زائفة أو هى أشباه ألفاظ، وما أشبه الأمر هنا بظرف يتداوله الناس فى الأسواق مدة طويلة على أنه يحتوى على ورقة من ذوات الجنيه حتى يكتسب الظرف قيمة الجنيه فى المعاملات . وبعدئذ يجئ متشكك ويفض الظرف ليستوثق من مكنونه ومحتواه، وإذا هو فارغ، وكان ينبغى أن يبطل البيع به والشراء لو تنبه الناس إلى زيفه من أول الأمر "(٣)

والتساؤل هنا ما هى الكلمة أو الكلمات الزائفة التى لا معنى لها بالرغم من وجودها والتعامل بها ولو تنبه الناس إلى ما فيها من زيف لبطل البيع بها والشراء؟

أكل الكلمات الميتافيزيقية على هذا النحو، وجماهير الناس لا يعرفون " الميتافيزيقيا " فضلاً عن أن يقفوا على مصطلحاتها؟(٤)

---

(١) خرافة الميتافيزيقيا ص ٧٨
(٢) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٣٠٦ ، ٣١١ بتصرف
(٣) خرافة الميتافيزيقيا ص ١٠٠ ـ ١٠٥ نقلاً عن الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار
(٤) الفكر الإسلامى الحديث ص ٣١٠

إن الكلمات التى يقصدها هى الكلمات التى تتعلق بعالم الغيب وهى التى يشبهها بالظرف المغلق. فلما تقدم العلم التجريبى تحقق زيف هذه الكلمات. وكان ينبغى أن يكتشف هذا الأمر من فترة طويلة ، ولكن الوسائل لم تكن متاحة أما وقد أتيحت فلا معنى للتعامل مع تلك الألفاظ. ذهب إلى هذا الرأى الدكتور " زكى نجيب محمود " متابعة للفكر الغربى المادى الذى تبناه " أوجست كونت " وغيره من أتباع الوضعية المنطقية، وقد ذهب البعض إلى رجوع صاحب هذا الكلام عنه فى آخر حياته (١)

---

(١) انظر مجلة المجتمع الكويتية العدد ٨٥٥ فى ١٢ / ٦ / ١٤٠٨هـ وانظر الصحوة الإسلامية فى عيون مختلفة الدكتور نعمان السامرائى ص ٩٢ ـ الناشر دار المنارة للنشر والتوزيع جدة الطبعة الأولى ١٩٩٣م

المبحث الثانى
تقويم المذهب الوضعى

مناقشة " أوجست كونت " وأتباعه فى مدى علمية قانون الحالات الثلاثة

المسألة الأولى: عدم اتباع كونت المنهج العلمى فيما ذهب إليه

١ـ ما هو رأى " كونت " فيما يقرره العلم ـ الذى يعتبره " كونت " هو الحكم النهائى لأى أمر من الأمور ـ العلم يقول إن الجنس البشرى عمره ملايين السنين. فكيف تم لكونت من الناحية العلمية توزيع الحالات الثلاثة على هذه الملايين على اعتبار أن المرحلة الثالثة الواقعية أو العلمية بدأت فى زمنه. إنه إلزام لا يجد " كونت " ولا أتباعه جواباً عليه (١)

إن نقطة الخطأ فى المذهب الوضعى تتمثل فى أن أنصاره جعلوا منه قانوناً يستوعب التاريخ كله فى شوط واحد قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل ونفضت يدها أو كادت منه إلى غير رجعة ولن تعود إليه إلا أن يعود الكهل إلى طفولته وشبابه ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية كلما ختمت شوطاً رجعت عوداً على بدء لكان الخطأ أقل شناعة

ولكنها أيضاً تظل دعوى غير سليمة لا لأنها مجردة عن البرهان فحسب بل لأنها تُحرف التاريخ وتصادم العيان (٢)

ثم إن " أوجست كونت " عندما وضع نظريته الوضعية لم ينظر فى العلوم الدينية والعلوم التجريبية نظرة موضوعية وإلا كان لزاماً عليه أن ينظر فى علوم سائر الإديان وخاصة الإسلام. قبل أن يعمم الحكم الذى استخلصه من النظر فى دين الكنيسة على كل الأديان. وهذا التعميم مخالف للموضوعية هذا من جهة، ومن جهة

---

(١) انظر الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص ١١

(٢) الدين للدكتور درازص ٨٤ / ٨٥ وانظر الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب ج ٢ ص ٨٢٢

أخرى فإنه لم يستخلص نظريته من مجرد النظر فى الدين والعلم ولكنه أتى وقد اعتقد بفكرة تنازعهما وتعارضهما ثم حاول أن يأتى بالشواهد الدالة على هذا الحكم الموضوعى السابق، والمذهب الوضعى فى تحليله النهائى جاء نتيجة رد فعل العقل الأوربى لموقف الكنيسة من العلم. ومن ثمَّ فهو إفراز خاص لحالة رد الفعل وهذا يمنع كونها نتيجة بحث موضوعى [١]

٢ـ يختلف الطريق الذى سلكه العقل الإنسانى عن ذلك الذى حدده "كونت" ففى كثير من الأمور كان الفهم الوضعى للأمور يسير مع الفهم الدينى أو الميتافيزيقى ففى مجال فهم الحقائق الرياضية والفلكية مثلاً أمور كانت تسير مع الفهم قديماً، ولا تزال بعض المجتمعات تفسر دينياً على الرغم من أننا نجتاز حالياً المرحلة الوضعية فى نظر "كونت" [٢] وكما يقول الدكتور دراز (إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة فى نفس كل فرد ففى الوقت الذى نفسر فيه الحوادث العادية بأسبابها المباشرة خارجية أو داخلية. فنقول مات فلان بكذا أو هلك فلان بكذا لا يزال كل واحد منا يفسر الحوادث الشاذة الخارقة بالقضاء والقدر أو بسبب غير حسى معلوم. بل نذهب أبعد من هذا حين نقول إن الفطرة الموضوعية تقع فى بداية الطريق لا فى نهايته. وأن ما ظنه "كونت" يمثل مرحلة النضج العقلى. يمثل مرحلة الطفولة النفسية لا مرحلة النضج والكمال ذلك بأن مبعثها الحاجة العاجلة، وضرورة الحياة اليومية وبأنها وظيفة الحس لا العقل وبأنها من معدن القابلية والانفعال لا من معدن الفاعلية والإنشاء أما نظرة التعليل فإنها تنبثق فى النفس على إثر ذلك متى استيقظت ملكة التجريد والتعميم فى التصورات والأحكام أما المرحلة الدينية فواضح أنها لا تولد فى النفس إلا حينما يتسع أفقها فتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه فهى أوسع النظريات مجالاً وأبعدها مطلباً وهكذا ينقلب الترتيب الذى تخيله الفيلسوف رأساً على عقب والحاجات النفسية المعقولة. حاجة الحس فحاجة العقل فحاجة الروح أو إن شئت قلت حاجة الحس فحاجة العقل القانع فحاجة العقل المتسامى المتمثلة فى الدين [٣] وهذا النقد الذى يوجه إلى النظرية فى بنيانها الفكرى يأتى على

---

(١) الإسلام والعلم التجريبى ص ٩٩ ـ ١٠٠ د/ فاروق الدسوقى

(٢) الموسوعة الميسرة ج ٢ ص ٨٢٢

(٣) انظر الدين للدكتور دراز ص ٨٥ ـ ٨٧ بتصرف وانظر الإسلام والعلم التجريبى ص ٩٧ ـ ٩٨

أصولها من القواعد. وهى تفسيرات لا مجال لإنكارها أو المزايدة عليها. إن " كونت " بهره العلم التجريبى فحصر فيه كل الحقيقة وجاءت فلسفته الواقعية هى الفلسفة المادية بالرغم من تحفظه إذ أنها تؤدى إلى النتيجة ذاتها ، وهى إنكار الميتافيزيقيا أى الغيبيات [1]

ديانة الإنسانية وهدمها للمذهب الوضعى

أين العلم الوضعى عند مدَّعيه " كونت " فيما اخترعه من ديانة الإنسانية [2] بعد أن رفض الأديان جميعها. صنع ديناً جعل المعبود فيه هو الإنسان بدلاً من الله.

(إمرأة) تدعى " كلوتيلد دى فو " .

والكتاب المقدس لدى الإنسانية إنجيل الوضعية. عبارة عن الرسائل المتبادلة بينه وبينها.

والمعبد هو شقتها التى كانت تعيش فيها.

وقدس الأقداس الكرسى الذى كانت تجلس عليه وبعض متعلقاتها الشخصية بل أكثر من هذا صاغ صلاة لها. يقف هو وأتباعه أمام تمثال أم البشرية لمناجاتها. وصارت تلك المرأة هى شيطانه الذى يوحى إليه أثناء تحريره كتابه الكبير (مذهب فى السياسة الواقعية) أو كتاب (فى علم الاجتماع) يصنع ديانة الإنسانية (١٨٥١-١٨٥٤) فى أربعة مجلدات واختصره فى كتاب (التعليم الدينى الواقعى) أو عرض موجز للديانة الكلية ١٨٥٢م [3] وقد أدى صنيعه هذا إلى اعتزال تلاميذه له وعدوه خارجاً عن الفلسفة الواقعية الخاصة [4] فأى شيء أكبر شهادة على أن نهاية العلم البشرى ليست هى إطفاء الغريزة الدينية. بل زيادة إشعالها من أن مؤسس المذهب الوضعى وكبار أتباعه كما يقول الدكتور دراز " قد انتهو إلى الاعتراف صراحة أو ضمنا بهذه الحقيقة بناءً على تجربتهم فى أنفسهم. فهذا " كونت " نفسه الذى كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية لتقدم العلوم فعاد آخر أمره إلى الدين ، وكلل

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٢٩

(٢) ديانة الإنسانية هى (عبادة الإنسانية باعتبارها الموجود الأعظم التى تشارك فيه الموجودات الماضية والمستقبلة المساهمة فى تقدم بنى الإنسان وسعادتهم) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٢٨

(٣) نفسه ص ٣١٧ وانظر المبحث الخاص بالمذهب الوضعى فى كتاب أستاذنا الدكتور يحيى هاشم فى مواجهة الإلحاد المعاصر. نشر مجمع البحوث الإسلامية

(٤) تاريخ الفلسفة الحديثة ٣٢٧

حياته بوضع ديانة جديدة طبعها على غرار النظام الكنسى للديانة الكاثوليكية فى عقائدها وطقوسها، وأعيادها وطبقات قساوستها. رواية كاملة أعاد فصولها ولم يغير إلا أشخاصها "[١] ولكنه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير رجع إلى وثنية بدائية ساذجة ذكرتنا بأشد الشعوب همجية حين تنحرف عن الوحى والحق، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾[٢] وهى وإن نزلت فى أهل مكة الذين كانوا يعبدون الأوثان ويسمونها باسم الإناث إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون. ولذا فإن الآية عامة فى أمثال " كونت " ومن بعده فى كل زمان ومكان . وتأتى الدقة فى التعبير بالإناث. كما ورد عن الحسن وقتادة إلا إناثاً: أى موتاً لا روح فيه لأن أصنامهم كانت من الجمادات سماها إناثاً لأنه يخبر عن الموت كما يخبر عن الإناث ولأن الإناث أدْوَنْ الجنسين كما أن الموات أرذل من الحيوان[٣] وقد تحققت الخستان فى المعبودة التى عبدها كونت بعد مماتها، وأقيمت لها المعابد فى باريس بل إن أكبر المعابد لأتباع الوضعية فى البرازيل. إنهم تركوا الإله الحق واتخذوا آلهة متعددة عبدوها من دون الله وأنزلوا عليها صفات الإله الحق...، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٤] ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[٥] إن الله يرسم صورة للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت الذى يحركها وتشعر به وهو الله. ثم تتعبد للهوى وتخضع له وتقيمه إلهاً قاهراً مستولياً عليها، وإن العجب من الذى اتخذ إلهه هواه بعد أن عرف الحق، ولكنه لم يرعوى لهدى الله فاستحق الإضلال من الله وتركه فى عمايته وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة.[٦]

(١) الدين للدكتور دراز ص ٩٤ بتصرف
(٢) سورة النساء الآية ١١٧
(٣) مختصر تفسير البغوى ج ١ ص ١٩٦
(٤) سورة الجاثية الآية ٢٣
(٥) سورة الجاثية الآية ٢٤/٢٣
(٦) فى ظلال القرآن ج ٥ ص ٣٢٣٠/ ٣٢٣١

المسألة الثانية: العلم التجريبى قائم على الغيبيات

منذ أن ظهر العلم التجريبى وكثير من الناس فى فتنة عمياء من هذا الصنم الجديد لقد سرى فى كثير من الناس يقين أو شبه يقين أنه إذا قال العلم الحديث أو اكتشف العلماء كذا. تنصب هالة عليه. (١) وكأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإذا ذكرت لهم أن الدين يقول أو قال الله أو قال رسوله تراهم يعرضون أو على الأقل لا يكون إنصاتهم لمثل إنصاتهم لما يقره العلم خاصة إذا كان القول مرتبطاً بالأسماء الأجنبية أو المراجع الأوربية أو الأمريكية. وصدق الله إذ يقول ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾

وها نحن نستشهد بأقوال أساطين العلم التجريبى للتدليل على أن العلم التجريبى يستخدم فى بنيته نفس الأمور التى يستخدمها الدين. من حيث الاعتماد على أمور غيبية. فإذا كان المؤمن يؤمن بقوة غيبية لا تُرى هذه القوة هى الله فإن الماديين يؤمنون بقوة غيبية لا ترى وهم مضطرون إلى ذلك. فما القانون العلمى والقوة والحركة والزمن والأزلى والأبدى إلا مفاهيم لا تخضع للحس والمشاهدة ومع ذلك لا يجرؤ أحدٌ من الذين يشتغلون بالعلم التجريبى أن ينكرها وإلا لكان علمه ساذجاً واتهمه زملاؤه بالسطحية يقول " وحيد الدين خان " إن أى عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو خطوة دون الاعتماد على ألفاظ مثل القوة (Force) والطاقة (Energy) والطبيعة (Nature) وقانون الطبيعة (Law /o f nature) وما إلى ذلك ولكن هذا العالم لا يدرى ما القوة والطبيعة وقانونها. فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة لكى يدلل على علل غير معلومة، ولكن هذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ تماماً كعالم الدين. كلاهما يؤمن بدوره بعلل غير معلومة "(٢)

---

(١) انظر الأقوال التى نقلها الأستاذ محمد فريد وجدى عن الغربيين فى هذا المعنى فى كتابه الإسلام فى عصر العلم

(٢) الإسلام يتحدى ص ٦١/ ٦٢

يقول أحدهم " إن العلوم مهتمة بتحسين نظرياتها وهى تحاول أن تكشف عن كنه الحقيقة ولكنها كلما اقتربت من هذين الهدفين زاد بعدها عنهما إن فكرتنا قائمة على أساس حواسنا القاصرة وعلى استخدام ما لدينا من الأدوات غير الدقيقة نسبياً إن العلوم لا تستطيع أن تُفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية كما لا تستطيع أن تَفّسر لنا بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكى تكون الحياة [١] ذلك واحد من المهتمين بالعلم التجريبى يقول هذا الكلام بعد " كونت " بأكثر من قرن. مع التقدم النسبى فى أدوات العلم التجريبى فى عصره مقارنة بزمن " كونت " إذا كانت العلوم لا تستطيع أن تُفسر وهذا العجز يُصرح به؟ إذن فلا مناص من الاعتراف بالله ليفسر لنا ما عجزت العلوم عنه وما ستعجز عنه مستقبلاً. إن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتى العلم القطعيتين والعلم لا ينحصر فى الأمور التى شوهدت بالتجربة المباشرة يقول " الكسيس كاريل " إن الكون الرياضى شبكة معقدة من القياسات والفروض لا تشتمل على شيء غير معادلة الرموز التى تحتوى على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها " [٢] إذن فمن الذى يفسر ومن الذى يعطى اليقين إنه الدين الصحيح المتمثل فى الإسلام.

يقول أحد علماء الفيزيقيا " إننا نستطيع أن نبنى كثيراً من النظريات على عدد قليل من البدهيات أو تلك الفروض التى نسلم بها ونقبلها دون مناقشة أو جدال حول صحتها، وعند إثبات أى نظرية نجد أن برهانها يعتمد فى النهاية على مسلمات أو أمور بديهية، ومع ذلك فإن النظريات مجتمعة لا تستطيع أن تقدم دليلاً على صحة بديهية من هذه البديهيات . فالواقع أننا نقبل البديهيات قبول تسليم وإيمان "[٣] ويضيف قائلاً وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أنه تسليم وإيمان أعمى لا يقوم على البصيرة، وكذلك الحال فيما يتعلق بوجود الله فوجوده تعالى أمر بديهى من الوجهة الفلسفية والاستدلال بالأشياء على وجود الله لا يرمى إلى إثبات البديهيات ولكنه يبدأ بها "[٤]

---

(١) انظر مقال المادية وحدها لا تكفى - ضمن كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص ٥٧

(٢) الإسلام يتحدى ص ٦٢

(٣) انظر منطق الإيمان - لجورج هربرت بونت أستاذ الفيزياء التطبيقية ضمن الله يتجلى فى عصر العلم ص ٨٥

(٤) نفسه

هـذه أقـوال الباحـثين فـى العلـوم وفلسـفتها فـى القـرن العشرين. يقررون أن العلم التجريبى يقوم على التسليم والإيمان.

يقـول أحدهم " إننـى أسـلم بوجـود اللاماديات لأننى بوضعى من علماء الفيزياء أشعر بالحاجة إلى وجـود سبب أول غير مادى. إن فلسفتى تسمح بوجود غير المادى لأنه بحكم تعريفه لا يمكن إدراكه بالحواس الطبيعية فمن الحماقة إذن أن أنكر وجوده بسبب عجز العلوم عن الوصول إليه، وفوق ذلك فإن الفيزياء الحديثة قد علمتنى أن الطبيعة أعجز مـن أن تـنظم نفسـها أو تسيطر علـى نفسـها "[١] هـل إذا وضعنا مفهوم المذهب الوضـعى الـذى لا يعتـبر شـيئاً حقيقـياً ولا واقعـياً إلا إذا كـان يمكـن إدراكـه بالحس، ويخضـع للتجـربة. بعـد الـذى قـرأناه يُعد تعريف الوضعية صحيحاً أوله مكان وسط العلم؟؟

إن قانون الجاذبية لا يمكن ملاحظته قطعاً وكل ما شاهده العلماء لا يمثل فى ذاته قانون الجاذبية وإنما هى أشياء أخرى اضطروا لأجلها منطقياً أن يؤمنوا بوجود هذا القانون. ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية؟ ها هو نيوتن يتحدث فى خطاب أرسله إلى أحد أصدقائه " إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهى تؤثر على أخرى مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما[٢].

والحق ما يقوله العلامة الدكتور دراز حين يذكر أن العلم يؤمن اليوم بأن فى الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد، ولا المجهز بأقوى المجاهر المزود بأدق المقاييس، والموازين وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هى المعيار الوحيد للوجود وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى فى القواعد التى تقوم عليها الأديان [٣] لقد وضعت نظريات عديدة لكى تفسر لنا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة نشأت من البروتوجين أو من الفيروس أو من تجمع بعض

---

(١) المبدع الأعظم مقال كلودم ها ثواى من كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص ٩٦

(٢) الإسلام يتحدى ص ٦٤

(٣) انظر الدين للدكتور دراز ص ٩٠

الجزئيات البروتينية الكبيرة وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التى تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات ولكن الواقع الذى ينبغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود التى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين. إن كل خلية حية بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته سبحانه وتعالى شهادة تقوم على الفكر والمنطق [1] هذه النصوص كلها أليست شاهدة على مدى التعصب والهوى عند بعض الذين يتعاملون مع تلك الغيبيات فى العلم التجريبى. وهم مضطرون لذلك. وإلا ستتوقف البحوث تماماً ـ ولن يتقدم العلم قيد أنملة ـ لكن إذا عُرض عليهم الدين رفضوه لأنه يقوم على الغيبيات ومن ثمَّ أنكروا حقائق هى أوثق مما يتعاملون معه باسم العلم. إن هؤلاء وأولئك ينطبق عليهم قوله تعالى ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [2]

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [3] أى ضياعاً وقيل معناه ضيع أمره وعطل أيامه فى الباطل ومخالفة الحق [4]

---

(١) انظر مقال رسل تشارلز أرنست الخلايا الحية تؤدى رسالتها ضمن كتاب الله يتجلى فى عصر العلم ص ٨٣ وانظر الإسلام والعلم التجريبى ص ٩٨

(٢) سورة الروم الآية ٧

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨

(٤) تفسير البغوى ج ٢ ص ٥٣٥

المسألة الثالثة: إخفاق العلم التجريبى فى حل مشكلات الإنسان

لقد استعرض " كونت " تاريخ البشرية قبل عهد العلم والصناعة واستخلص منه أن عهدين قبل هذا العهد مراً بالإنسانية ولم يزل الإنسان فى طور الغاب والحيوانية، والغريزة العمياء، والأنانية رغم وجود الدين " الكنسى " كمصدر للتوجيه فى عهد، ووجود الفلسفة بعده فى عهد آخر، ورغم إسناد التوجيه فى العهد الأول إلى رجل الدين والحرب وفى العهد الثانى إلى رجل الفلسفة ورجل القانون، ولكن عصر العلم، والصناعة بعدهما وإسناد التوجيه فيهما إلى رجل العلم والصناعة كفيل فى نظره بنقل الإنسان من هذا المستوى الغريزى الحيوانى إلى المستوى الإنسانى بمعناه الصحيح[١] وفى رأيه أنه " كلما تقدم العلم وقوى الإيمان بالإنسانية كلما تقدم الإنسان وابتعد عن الحيوانية وعن سيطرة الغريزة العمياء وتحكم الأنانية "[٢] ونحن الآن بعد مضى فترة ليست بالقصيرة تقدم العلم التجريبى فيها أضعاف أضعاف ما كان عليه فى عهد " كونت " والمفترض بناءً على طرح " كونت " أن تحل جميع المشاكل المتعلقة بالإنسان فهل حدث هذا؟ وحل العلم المشاكل التى تؤرق الإنسان فى العصر الحديث؟ وهل انتهت القرصنة وشريعة الغاب؟ وهل بعد التقدم العلمى المذهل الذى تسبب فى ملئ خزانات الدول والأفراد فى الغرب الصناعى بالأموال شعر إنسان القرن العشرين بالسعادة؟ أسئلة يجيب عليها الواقع وتشهد لها التجربة، يقول " روجيه جارودى" إن الاعتقاد بقدرة العلوم الموضوعية والتقنيات المتقدمة على حل مشكلاتنا، والقول بأن مفتاح جميع القضايا الإنسانية فى يد هذه العلوم والتقنيات وهم، خرافى فتاك. وقد صب هذا الاعتقاد بكل غباء ولا مبالاة انتحارية فى قالب عصرى كاذب يقول " لا يمكننا وقف التقدم "[٣] ويقارن " جارودى " بين أكثر النماذج وحشية فى التاريخ وبين ما فعله العلم وتقنياته بقوله " لقد أمضى

---

(١) الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر ص ٣٩٥ الدكتور محمد البهى.

(٢) نفسه ص ٣٩٧.

(٣) ما يعد به الإسلام ص ١١٤ - ١١٥

تيمور لنك بعد الاستيلاء على أصفهان عدة أيام فى ذبح سبعمائة ألف من البشر. أما فى هيروشيما فلقد وصل الإنسان إلى النتيجة نفسها خلال ثوان معدودة وهذا - لعمرى - تقدم علمى لامراء فيه، وعالم اليوم يملك ما يوازى مليون قنبلة من قنبلة هيروشيما " أى ما يعادل خمسة أطنان من المتفجرات التقليدية على رأس كل مواطن على هذا الكوكب "[١] هذا هو العلم التجريبى الذى يُتخذ صنماً يعبده من دون الله. والذى يذهب " كونت " إلى قدرته على حل المشاكل - نعمْ إنه يحل مشكلة - ولكنه يخلق صعوبات لا حصر لها، مع غياب الموجه لهذا العلم وتلك التقنية يذكر " روجيه جارودى " هذا الذى عاش فى قلب الحضارة الغربية وسبر أغوارها أن تحسين الغرب لتقنياته فى قطع أشجار الغابات، وفى تطوير زراعة المحصول الواحد. لم يؤد إلا إلى موت خمسين مليوناً من البشر جوعاً فى العالم الثالث، وهذا الرقم سيصل إلى خمسة وثمانين مليوناً بعد كل خمس سنوات بعد أن تسببت تقنياته إلى تعرية جبال الهملايا، وفيضانات بنجلادش [٢] إنه التقدم العلمى الذى يرمى بالفائض من الحبوب فى البحار للمحافظة على السعر العالمى . إن الدول المتقدمة تصرف مائة مليار سنوياً على الخمور وثلاثمائة مليار دولار على التسليح يكفى استعمال ٣٪ فقط من مصروفات الخمور أو بتخفيض ١٪ فقط من مصروفات التسليح لكى تتوفر المياه النظيفة فى العالم [٣] فهل فعل أرباب العلم التجريبى؟ أم أن العلم التجريبى يخص جنساً دون جنس، واقع الأمر يقول ذلك إن الإنسان الأبيض ، وهو إنسان المجتمع الأمريكى والغربى مجتمع " كونت " لا يزال يباشر التفرقة العنصرية فى سياسته مع غير الإنسان الأبيض النصرانى. لأنه من الممكن أن يكون أبيضاً وتمارس ضده تلك التفرقة وما المسلمون فى أوربا . فى البوسنة والهرسك والبلقان إلا خير شاهد على ذلك. وليتأمل معنا القارئ النموذج الذى نورده للتدليل على أن إنسان العلم التجريبى قد تجرد من كل إنسانية وهو يتعامل مع غير الأبيض النصرانى.

---

(١) ما يعد به الإسلام ص ١٥.
(٢) نفسه
(٣) الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين ص ٣٥ - ٣٦ د/ نبيل صبحى " كتاب الأمة " العدد ٧ شوال ١٤٠٤

أوردت مجلة المجتمع الكويتية فى أحد أعدادها ملخصاً لكتاب بعنوان " الإيمان والدَّيْن " لمؤلفته الهولندية " سوزان جورج " تتحدث فى هذا الكتاب عما يقوم به سدنة النظام الرأسمالى نتاج العلم التجريبى. تقول " يكتب نائب رئيس البنك الدولى للتنمية الاقتصادية فى تقرير له عن تصدير الصناعات القذرة لدول العالم الثالث وضرورة قيام البنك الدولى بمساعدة تصدير هذه الصناعات والحجج القوية الدافعة لهذا العمل ما يأتى :-

١- عندما تلقى النفايات السامة فى بلد متوسط دخل الفرد فيه (٢٠٠٠٠) عشرون ألف دولار سنوياً، ومتوسط عمره الحالى أربعين سنة ويتوقع أن يعيش خمسة وعشرون عاماً أخرى فإن الاقتصاد العالمى يتوقع دخلاً يساوى (٢٠× ٢٥) = ٥٠٠٠٠٠ خمسمائة ألف دولار فى حين أن الفرد فى العالم الثالث يتوقع أن يكون دخله على أحسن الفروض (٣٠٠ دولار) فى السنة ويتوقع أن يعيش خمس عشرة سنة أخرى ولذلك فهو لا يضيف إلى الاقتصاد العالمى سوى (١٥ × ٣٠٠) = ٤٥٠٠ دولار فإلقاء النفايات فى البلد الثانى يشكل تصرفاً منطقياً.

٢- إن كثيراً من بلدان العالم الثالث تعداد سكانها منخفض، ودرجة التلوث فيها منخفضة بما يعنى أن هواءها وماءها أقل تلوثاً من دول العالم الأول الصناعى وبذلك يكون منطقياً إلقاء النفايات هناك حتى تلحق بدول العالم الأول. فى درجة تلوث بيئتها.

٣- إن الشحاذين لا خيار لهم فإذا أرادوا أن يقبلوا معوناتنا فعليهم أن يقبلوا شروطنا [1]

بهذه المعادلة البسيطة ينظر نائب رئيس البنك الدولى للتنمية للبشر من غير دول العالم المتقدم. إذا كان موت فرد من دول العالم الثالث يكلف الاقتصاد العالمى (٤٥٠٠) دولار وموت أحد أفراد العالم الصناعى الأول يكلفه (٥٠٠٠٠) خمسمائة ألف دولار. فلتكن التضحية بأفراد العالم الثالث. والتعليل بسيط ما داموا يأخذوا

(١) انظر مجلة المجتمع الكويتية وانظر للحقيقة فقط منذر الأسعد ففيه نماذج لا حصر لها عن الرجل الأبيض وأخلاقيات العلم التجريبى.

معوناتنا فليقبلوا شروطنا ـ التى تعنى الهلاك والدمار الحسى والمعنوى ـ وهنا نقول أين ديانة الإنسانية . وهل استطاعت أن تحد من غلواء الغربى ؟ وهل هذه السياسة العنصرية أمارة على العلم وبالتالى على تقدم الإنسان أم دليل واضح على الاعتقاد بالخرافة، وبالتالى على التخلف كما يقول الدكتور البهى رحمه الله [١]

الحق أن حضارة الغرب قد أقامت ناطحات السحاب وأجرت مراكب الفضاء بين الكواكب ووضعت قدم الإنسان على وجه القمر، وغمرت الأسواق بألوان الرفه والترف ولكنها لم تُدخل على مشاعر الناس وأحاسيسهم إلا القلق والحيرة ولم تسكب فى قلوبهم إلا الأثرة والأنانية ولم تثر فى تفكيرهم إلا دوافع العدوان والتسلط [٢]

ينقل الأستاذ " محمد فريد وجدى " عن العلامة " كاميل فلا مريون قوله " لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لا همَّ لها إلا أغراضها الذاتية أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها والحصول على المجد بطريقة الاغتيال لا الكسب ،والجمود وعدم الاهتمام بالواجبات؟ وإن من التناقض البين المؤلم أن نرى هذا الرقى الباهر الذى حصل فى العلوم مما لا مثيل له فى التاريخ وأن هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للإنسانية فى الطبيعة بينما رفع عقولنا إلى الدرجات العالية، قد هبط بإنسانيتنا إلى أخس الدرجات " [٣] وبالفعل أشبع جانب فى الإنسان وأهملت جوانب أخرى كثيرة. وذلك مرده إلى النظر للأمور من جانب واحد . وهذا شأن الإنسان حين لا يكون له مرجع صحيح يتمثل فى دين حق يرجع إليه والدين الحق الذى نقصده هو الإسلام.

---

(١) انظر كتابه الفكر الإسلامى المعاصر مشكلات الحكم والتوجيه ص ٣٩٨ وما بعدها

(٢) الله ذاتاً وموضوعاً ص ٥١ للأستاذ عبد الكريم الخطيب ـ دار الفكر العربى .

(٣) الإسلام فى عصر العلم للأستاذ محمد فريد وجدى ج ١ ص ٢٨٣ بتصرف يسير وانظر أيضاً من ٢٢٨ ـ ٢٤٣

المسألة الرابعة: انتشار السحر والتنجيم فى الحضارة الغربية المعاصرة على الرغم من العلم التجريبى:ـ

هذه الحالة هى التى دفعت الأفراد فى المجتمعات الغربية إلى الهروب من هذا الجحيم إلى الوهم والسراب حيث قارئات الفنجان. وضاربى الودع بعد قرن ونصف من تبشير " كونت " بالمذهب الوضعى وأربعة قرون من ولادة ديكارت صاحب العبارة الشهيرة " أنا أفكر إذن فأنا موجود " كل هذه العقلانية والوضعية اللتان بَزَغَتَا من فرنسا. لم تَحُلْ دون تفشى ظاهرة لجوء الفرنسيين المتزايد لقارئى الطالع الذين يبلغ عددهم فى إحصاء رسمي الخسمين ألف ممتهن بينما عدد الكهنة الكاثوليك لا يتجاوز الستة والثلاثين ألفاً، وعلماء النفس الستة آلاف) أما مهنة التنجيم فى فرنسا التى يقدر عدد زبائنها المدمنون بمليون ونيف، وهناك فروع عدة من قراءة الفنجان إلى قراءة الكرة الزجاجية إلى قراءة ورق الكوتشينا إلى قراءة الغيب فى كوب ماء إلى السحر الإغريقى والمندل المغربى إلى الوصفات العجائبية من الأعشاب والسوائل والحجابات والأبراج. وبالرغم من أن القضاء يلاحق من حين لآخر بعض المشعوذين الذين يتعاطون هذه المهنة لابتزاز بعض العجائز فإن ظاهرة التنجيم وقراءة البخت والسحر تلفت النظر فى وطن " ديكارت " أما فى الجانب الآخر من المحيط الأطلسى فإن اللجوء المتزايد إلى الأطباء النفسانيين والعقلانيين للمعالجة فضلاً عن انتشار عبادة الشيطان إلى الهيبز وغير ذلك من البدع التى تظهر كل حين وآخر. وتتساءل صحيفة " النيويورك تايمز " عن سر انتشار هذه المظاهر فى فرنسا؟ تجيب الصحيفة عن السبب فى ذلك بأن الفرنسيين هم رواد المتناقضات. وتدلل الصحيفة بأمثلة كثيرة على هذه المتناقضات. إلا أن الإجابة التى يصعب تجاهلها. وهى من العوامل الرئيسة فى انتشار هذه الأشياء فى موطن " ديكارت " و " كونت " ـ هى العطش الروحى والقلق النفسانى المتمثل فى البحث عن منطلقات جديدة[1] قد تكون بدائية أو لا تكون ولكنها تمثل نوعاً من الهروب إلى المجهول فى غياب القيم والدين من بنيان المجتمع الغربى ماذا يقول لنا " كونت " وأتباع الوضعية عن هذه

---

(١) جريدة الشرق الأوسط العدد ٦٣٨٢ الأحد ١٩٩٦/٥/١٩ م مقال بعنوان اللاعقلانية الفرنسية. باسم الجاسر

النماذج التى انتشرت ليست على مستوى العوام بل على مستوى الشخصيات السياسية والاقتصادية وأصبح لبعض رؤساء الدول عرَّافات هن من أعلام المجتمع(١) فقد كانت زوجة الرئيس الأمريكى " رونالد ريجان " تستشير عرافة أصولية كانت تدعى القدرة على تلقى الرؤى من الله، وكان الهدف من استشارة زوجة " ريجان " لها معرفة ما يجب فعله من قِبَلْ الرئيس حسب إرادة الله ومشيئته (٢) إذن أين العلم الأمريكى والتقنيات الحديثة؟ أين الجيوش الجرارة من رجال المخابرات ومستشارى الأمن القومى. وعلماء النفس والاجتماع الذين يحللون ويدرسون ويكتبون التقارير؟ ما بال " ريجان " وغيره لم يلجأ إليهم إنها الفطرة حين توخز الإنسان فيحاول أن يلجأ إلى المجهول حتى ولو كان هذا الغيب خرافات وأساطير وأضغاث أحلام؟ ماذا لو رجعوا إلى الدين الحق المتمثل فى الإسلام. الذى يشبع الروح كما يشبع الجسد. والذى يتعامل مع الإنسان كإنسان من مادة وروح يعطى كلا منهما بقَدَرْ فلا طغيان لأحدهما على الآخر ولا إفراط ولا تفريط.

لقد أدرك بعض العلماء أنهم ضللوا الناس حين زعموا لهم أنهم يستطيعون تفسير كل شيء فى الكون بقانون مفهوم. أدركوا أن دعواهم بأن العلم يستطيع أن يفسر المجاهيل كلها لم يكن سوى خرافة، وأن العصر الذهبى للعلم فى نظرهم الذى سيطر فيه الإله الجديد فجعل يثبت ما يدخل فى إدراكه، وينفى ما لا يقع فى نطاقه هذا العصر كله عصر الخرافة الكبرى (٣)

هكذا يعترف العلماء التجريبيون ـ الواحد منهم بعد الآخر ـ إنهم يسجلون الحيرة والتعجب بالرغم مما وصلوا إليه. فما بال المستضعفين من الرجال والنساء الحيارى والضالين تحت دعوى أن العلم قادر على كل شيء ما بالهم لا يرجعون...!!

يقول السير جيمس جينز عالم الفلك الذى بدأ حياته ملحداً شاكاً " لقد حاولنا أن نبحث فيما إذا كانت العلوم الحديثة عندها ما تقوله عن مسائل صعبة معينة. ربما كانت إلى الأبد بعيدة عن منال العلم التجريبى ولا نستطيع أن ندعى أننا لمحنا أكثر من بصيص ضعيف من النور، وربما كنا واهمين تماماً فى لمح هذا البصيص بالتجربة

---

(١) الإسلام والاتجاهات العلمية ص ١١/١٢

(٢) المسيحية والحرب ص ٤٥ للدكتور رفيق حبيب ـ الناشر دار يافا

(٣) فى النفس والمجتمع ص ٤٢ ـ ٤٣ محمد قطب

الموضوعية فإننا ولا شك قد اضطررنا إلى أن نجهد أعيننا إجهاداً عظيماً قبل أن نظفر برؤية شيء ما، ولذا فليس معنى كلامنا أن العلم عنده قول فصل يلقيه بل على العكس ربما كان خير ما نستطيع أن نقوله.: إن العلم قد عدل عن إلقاء الأقوال جزافاً كما فى الماضى. فإن نهر المعرفة قد تعرج فى اتجاه سيره مراراً وتكراراً، وعجز عن إخضاع قضايا الدين والفلسفة لأسلوبه الحسى وإن العلم المادى كلما تقدم فى أبحاثه التى تتزايد، وتتضاخم يوماً بعد يوم ويرى أن أكثر قضاياه وضوحاً تخفى فى طواياها جيشاً عظيماً من الأسرار وما زال هذا شأنه. كلما وصل إلى منطقة من مناطق البحث، وخيل له فيها أنه بلغ الغاية. بدت له مناطق أخرى بعيدة المدى تتصل فى حقيقته وجودها بعالم المعتقد الذى هو عالم الوجدان والإيمان "(١)

هذا الكلام صادر عن أحد أساطين العلم. وهو يقرر فى كلامه أن تقدم العلوم يزيد البشرية حاجة إلى الدين أو الأصل أن يكون كذلك. لا كما ذهب أرباب الوضعية ومن على شاكلتهم. ولعل التوغل فى العلم ثم الرجوع منه بدون ما كان يتوقع الباحث هو الذى يدفع هؤلاء إلى الدين دفعاً. لأن الدين عنده إجابات عن كثير من الأسئلة التى يعجز عنها العلم.

ولعل رجوع الباحثين إلى الدين بعد توغلهم فى العلم يعيد إلى الذاكرة ما كان من شأن سحرة فرعون مع موسى عليه السلام. ذلك أن فرعون جمع كل سحَّار عليم فلما أخرجوا ما تَعَلَّمُوهُ من السحر، وهو نهاية العلم فيه، ثم ألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون؛ أيقنوا أن الذى عند موسى ليس من السحر فى شيء لأنه لو كان منه لعلموه. ولذلك كانوا صادقين وأعلنوا الإيمان.

يقول سبحانه ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ (٢)

---

(١) انظر الدين والفلسفة العلم ص ٣٧ ـ ٣٨ محمود أبو الفيض المنوفى ـ الناشر دار الكتب الحديثة .

(٢) سورة طه الآية ٧٠ ـ ٧١ وانظر شرح المواقف ص ٣٥٤

إن الجميع سيعود مرة أخرى إلى الدين لأنه الملاذ وهو اليقين والطمأنينة ولكن أى دين الذى يحقق لإنسان العصر الحديث وما بعده التوازن بين النفس والجسم بين الإنسان والكون بينه وبين المجتمع هل النصرانية بما آلت إليه؟ كلا. هل اليهودية بتعصبها الممقوت وإرهابها وتطرفها؟ كلا هل البوذية الديانة الخالية من فكرة الألوهية؟ كلا إن الذى يحقق ذلك كله هو الإسلام. وهذا ما سنتحدث عنه فى الصفحات القادمة إن شاء الله.



الخاتمة وتشتمل على

تعقيب أول

الإسلام والعلم

إن أهم ما يميز الإسلام هو جانب الشمولية فى تعاليمه ونعنى بالشمولية هنا أن الإسلام لا يحدد منطقة لله ومنطقة للإنسان بل الأمر كله لله. فأمر الحياة وعمارة الأرض للإسلام فيها توجيه يتمثل فى القصد فى الطلب وبذل أقصى الجهد لعمارة الأرض واستخراج خيراتها يقول تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [1] ويقول لقارون فيما يحكيه القرآن ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [2]

ومعلوم أن عمارة الأرض واستخراج خيراتها والتمتع بما أودعه الله فيها من كنوز لا يتم إلا بالعلم والمعرفة اللتان يحث عليهما الإسلام ويكفى أن نعلم أن أول سورة نزلت على قلب محمد صلى الله عليه وسلم بدأت بقول الله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [3]

بل إن آدم أبو البشرية ما استحق المنزلة العظيمة إلا بالعلم الذى علمه الله إياه يقول سبحانه ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [4]

---

(١) سورة الملك الآية ١٥
(٢) سورة القصص الآية ٧٧
(٣) سورة العلق الآية ١-٥
(٤) سورة البقرة الآية ٣١

وجاءت الآيات القرآنية تحث على التدبر، والتعقل، والتعلم، والتذكر مثل قوله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ﴾ [١] وقوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [٢] وقوله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [٣] وقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٤] وقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [٥] وقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [٦]

وجاءت الآية الكريمة التى تجمع شتى العلوم الزراعية منها والجيولوجية وعلم الأجناس البشرية، وعلم الحيوان. ثم تقرر أن العلماء أشد خشية لله لأنهم يعلمون بعض أسرار الله فى خلقه وكونه ومن ثمَّ فهم يتميزون عن غيرهم بالخشية والإجلال لله.

يقول تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [٧]

هنا لم يحدد العلم الدينى فحسب وإن كان هو أشرف العلوم وأهمها، ولكن أى علم يوصل إلى الخشية من الله. واستكشاف سننه وكونه يحث عليه الإسلام ويرغب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم.

لأن النفس البشرية السوية تتجاوز فيها حب المعرفة، وحب العبادة. لأن الفطرة تتطلع إلى ربها لتعبده، وتتطلع إلى الكون من حولها تحب أن تتعرف عليه وأدواتها

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١
(٢) سورة يوسف الآية ١٠٥
(٣) سورة يوسف الآية ١٠٤
(٤) سورة الروم الآية ٢١
(٥) سورة الروم الآية ٢٢
(٦) سورة الروم الآية ٢٤
(٧) سورة فاطر الآية ٢٨

الحس والعقل يقول تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1]

غذى الإسلام أدوات المعرفة وأطلق العنان للإنسان للبحث والتنقيب لتحقيق الخلافة فى الأرض. بالعلم المؤدى إلى الخشية والإيمان والتسليم لله سبحانه وتعالى.

وقد فهم المسلمون الأوائل آيات القرآن الكريم واستوعبوا إشاراته فانطلقوا يبحثون وينقبون. مظهرين سنن الله فى كونه وآياته فى سمائه وأرضه، وقدموا للبشرية طرحاً جديداً فى العلم يتمثل فى منهج البحث العلمى. مخالفين ما كان سائداً عند اليونان من الاهتمام بالعلم النظرى التجريدى والفلسفى. إلى العلم التجريبى " وكانت هذه نقلة هائلة فى منهج البحث. هى التى أهلت البحث للآفاق الواسعة التى وصل إليها الغرب فى القرون الأخيرة "[2]

وكان الذى حفز المسلمين للبحث فى هذا الاتجاه. آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

يقول الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾[3]

وسوف نتحدث عن بعض العلوم التى برع فيها المسلمون:

١ـ علم الفلك

انطلق المسلمون يبدعون فى علم الفلك ليس لذات العلم كما يفعل البعض ولكن لأنه يبحث فى معرفة السنين والشهور والمواقيت ولأنه من العلوم التى توصل إلى علم التوحيد وتعظيم الرب سبحانه. يقول أحد رواد علم الفلك فى الحضارة الإسلامية وهو " البتَّانى " (٢٤٤ ـ ٣١٧ هـ) " إن من أشرف العلوم منزلة وأسناها مرتبة وأحسنها حلية، وأعلقها بالقلوب وألمعها بالنفوس وأشدها تحديداً للفكر والنظر وتزكية للفهم رياضة للعقل بعد العلم بما لا يسع الإنسان جهله من شرائع

---

(١) سورة النحل الآية ٧٨ وانظر مذاهب فكرية معاصرة ص ٥٠

(٢) واقعنا المعاصر ص ٩٠

(٣) سورة الإسراء الآية ١٢

الدين وسنته. علم صناعة النجوم لما فى ذلك من جسيم الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة عدد السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان، وزيادة الليل والنهار ونقصانهما ومواضع النيران وكسوفهما ومسير الكواكب فى استقامتها ورجوعها وتبدل أشكالها ومراتب أخلاقها، وسائر مناسباتها إلى ما يدرك ذلك مَن أنعم النظر وأدام الفكر فيه من إثبات التوحيد ومعرفة كنه عظمة الخالق وسعة حكمته وجليل قدرته ولطيف صنعه "[1] هنا البحث من أجل مقاصد شرعية لتحديد أوائل الشهور التى ترتبط بها عبادات كشهر رمضان وأشهر الحج، ولتحديد مواقيت الصلاة. ثم لمعرفة عظمة الخالق وسعة حكمته وجليل قدرته.

ولم يكتف علماء الإسلام بالاشتغال بعلم الفلك وإنما نقدوا النظريات التى توصل إليها علم الإغريق[2]

وكانت البحوث الفلكية التى قام بها المسلمون تعود بالفائدة العلمية عليهم إذ كان لابد للمسلمين خاصة بعد الفتوحات أن يحددوا اتجاههم عبر الصحراء، ووسط أمواج البحار، وحينما راحوا يمخرون عُباب البحار والمحيطات ويجوبون الشواطئ كان لابد لهم كى يحددوا موقع سفنهم من معارف عميقة وأدوات للقياس كالاسطرلاب الذى طوروه وعدلوه فاستطاعوا به قياس ارتفاع الشمس والقمر وبعض النجوم وسائر الكواكب وكذا الأمر فيما يخص البوصلة التى اخترعوها ونقلوها إلى الصينيين فيما بعد. أما التوجه إلى " مكة " للصلاة أياً كان المكان الذى يقيم فيه الإنسان فيقتضى علماً دقيقاً للتوجه فى "الحيز المكانى"، وأما وجوب توقيت دقيق للصلوات الخمس اليومية فيتطلب معرفة موقع الشمس ساعة شروقها وغروبها وهذا ما يلزم كذلك لمعرفة توقيت الصيام والإفطار فى رمضان وتحديد يوم العيد انطلاقاً من موقع القمر، وقد بلغت الدقة فى البحوث الفلكية التى قام بها المسلمون الغاية. فقد قام الفلكى الأمير " أولنغ بيك " حفيد تيمور لنك " بقياس السنة الشمسية وحسابها بخطأ (١٤) ثانية فقط بالقياس إلى حساباتنا الحالية[3]

---

(١) الزيج الصابئ للبتانى ص ٦ نقلاً عن النهضة الأوربية ص ١٠٤

(٢) انظر نماذج متعددة لنقد العلماء المسلمين. لنظريات الإغريق. فى كتاب النهضة الأوربية دراسة نقدية ص ١١٠-١١٤

(٣) ما يعد به الإسلام ص ١٢٨/ ١٢٩ روجيه جارودى

٢ـ الرياضيات

كان للمسلمين السبق فى البحث فى الرياضيات خاصة علم الجبر الذى اخترعه الخوارزمى لحل مسائل الميراث المتضمنة فى علم الفرائض. وكان للعرب الفضل فى وصول الأرقام العربية إلى أوربا وكان الصفر الذى عرفه المسلمون عن طريق الهند إحداث ثورة فى الرياضيات. يذكر " روجيه جارودى " أن وصول ما يسمى بالأرقام العربية فى الغرب وبالأرقام الهندية عند العرب إلى أوربا عن طريق " الخوارزمى " ويتضمن كتاب " سيدهانت " الهندى الذى قدم إلى الخليفة المأمون والذى أحدث ثورة فى الرياضيات فى طريقة الترقيم العشرى تقوم على تسعة أرقام مضافاً إليها الصفر تسمح بالتعبير عن أى عدد من الأعداد. ثم إن " الخوارزمى " هو الذى لخص هذه الطريقة ووضع أسسها لتنقل بعد ذلك إلى أوربا من جامعة قرطبة على يد طالب راهب يُدعى " جربرت " الذى أصبح فيما بعد البابا " سلفستر الثانى " هذه الطريقة أحدثت انقلاباً فى الرياضيات وقد انتقلت إلى أوربا كذلك بطريق صقلية. كتب العالم " بوناش " المولود فى " بيزا " عامٍ (١١٨٠م) يقول " إن الأرقام الهندية التسعة (٩ - ٨ - ٧ - ٦ - ٥ - ٤ - ٣ - ٢ - ١) مضافاً إليها علامة الصفر (٠) يمكن أن نشكل منها ونكتب ما شئنا من أعداد " ويلاحظ أن الصفر المرموز إليه بحلقة فارغة (٥) يعنى عند الهنود يعنى العدم أو الفراغ وقد ترجمه العرب بمعناه الدقيق الأمين فسموه (الصفر) الذى يعنى الخلو أو الفراغ فى العربية [١]

يقول " داربر " : " ومن عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا وقد أحبوا الهندسة والعلوم الرياضية ومما تجدر الإشارة إليه أنهم لم يستندوا فيما كتبوه فى الميكانيكيات والسائلات والبصريات على مجرد النظر بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات [٢] ونستطيع أن نقول إن الذين اخترعوا بالأمس فى ظل الإسلام لديهم القدرة على أن يتفوقوا مرة أخرى فى كنف هذا الدين إذا هم استمسكوا به، واستحضروا روح تعاليمه.

---

(١) انظر ما يعد به الإسلام ص ١٢٥ روجيه جارودى ـ وانظر ص ١٢٦/ ١٢٧

(٢) الإسلام والحضارة العربية ج ٣ ص ١٢٨ محمد كرد على لجنة التأليف والترجمة القاهرة سنة (١٩٦٨م)

٣ـ العلوم الطبية

الطب من العلوم التى يحتاج إليها الإنسان فى معاشه وهى تعنى فى أبسط معانيها معالجة المرضى والمتألمين، والمصابين، ومن هنا كانت مهنة الطب مهنة إنسانية بالدرجة الأولى [١] وقد نشط بعض المسلمين للبحث فى العلوم الطبية، وممارسة علاج المرضى بدقة متناهية، وهذا يدل على أن المسلمين الأوائل لم يقفوا مكتوفى الأيدى مكبلى العقول تجاه بعض العلوم التى تُعد جديدة عليهم. فقد انطلقوا يستفيدون من غيرهم من الأمم وما هى إلا فترة وجيزة حتى استوعبوا ما حولهم. ثم انطلقوا يبحثون ويجربون ويعالجون وأمكن أن يضيفوا جديداً فى الطب والعلاج، وإن ما استحدثه العرب من علاجات مختلفة للأمراض، وما استخدموه من أدوات جراحية وما كشفوا عنه من أسباب الأمراض ليدلنا دلالة واضحة على عمق وأصالة الطب فى الدولة الإسلامية، وقد نشأت مدارس للطب فى العالم الإسلامى كان فيها التدريس على منهجين. منهج نظرى فى المدارس الطبية، ومنهج عملى للتدريب والتمرين يجتمع فيه الطلاب، حول رئيس الأطباء فيرون كيف يفحص المرضى، وما يصف لهم من العلاج. وإذا اجتاز الطلاب مدة الدراسة تقدموا للإمتحان ثم أقسموا اليمين " عهد أبقراط " ونالوا الشهادة ثم إذا هم بدأوا ممارسة التطبيب كانوا دائماً تحت رقابة الدولة [٢]

وقد نبغ كثير من الأطباء فى الدولة الإسلامية منهم على سبيل المثال:

١ـ أبو بكر محمد بن زكريا الرازى. الذى يعد من أعظم الأطباء المسلمين وقد ترجمت أكثر كتب الرازى إلى اللغة اللاتينية، وطبعت عدة مرات فى البندقية سنة ١٥٠٨م، وفى باريس ١٥٢٨، وأعيد طبع كتابه الجدرى، والحصبة سنة ١٧٤٥م، وظل مرجعاً فى جامعة " لوفان " حتى القرن السابع عشر الميلادى وتذكر المستشرقة الألمانية " زيغردهونكة " قبل ستمائة عام كان لكلية الطب بباريس أصغر مكتبة فى العالم لا تحتوى إلا على مؤلف واحد. هو كتاب الحاوى فى الطب " للرازى " وكان هذا الأثر العلمى الضخم يضم كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى عام ٩٢٥م وظل المرجع الأساسى فى أوربا لمدة تزيد على الأربعمائة عام بعد ذلك التاريخ دون أن يزاحمه مزاحم أو تؤثر فيه أو فى مكانته مخطوطة من المخطوطات الهزيلة التى

---

(١) انظر فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية ص ٧ د / عامر النجار ـ الناشر دار المعارف

(٢) انظر تاريخ العلوم عند العرب د / عمر فروخ ص ٢٧٦

دأب على صياغتها كهنة الأديرة قاطبة وهو العمل الجبار الذى خطته يد عربى قدير . ولقد اعترف اليونان بقيمة هذا الكنز العظيم وبفضل صاحبه عليهم وعلى الطب إجمالاً فأقاموا له نصباً فى وسط القاعة الكبيرة فى مدرسة الطب لديهم، وعلقوا صورته، وصورة عربى آخر هو " ابن سينا " فى قاعة أخرى كبيرة فى شارع سان جيرمان " حتى إذا ما تجمع فيه طلاب الطب وقعت أبصارهم عليه ورجعوا بذاكرتهم للوراء يسترجعون تاريخها "(١) وهذا من باب وشهد شاهد من أهلها.

٢ـ ابن النفيس ولد سنة ٦٠٧ هـ وتوفى ٦٨٧هـ وكان لهذا العالم فى الطب اكتشافات انتفعت بها أوروبا ـ فى مدارسها ـ فهو الذى اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يعرفها الأوروبيون بثلاث مائة سنة (٢) ويُعد ابن النفيس أول عربى عرف وظائف الرئتين والأوعية الدموية وهو الذى مهد الطريق للطبيب الإنجليزى " هارفى " كى يكتشف الدورة الدموية الكبرى، وهو أول من صحح الأخطاء الشائعة فى حركة الدم وكتب أول وصف صحيح لحركة الدم فى الجسم، وهو من أبرز من عرفوا علم وظائف الأعضاء وصحح بعض آراء " جالينوس " و"ابن سينا " فى حركة الدم (٣) وهو حين يكتب يبدأ باسم الله وحمده والثناء عليه ويسأل الله التيسير بينما نجد " دارون " يكتب فى موضوع من طبيعته أن يثير الوجدان البشرى ويبعث القلب خاشعًا وهو علم الحياة، وخروج الحى من الميت، وخروج الميت من الحى. فلا يذكر اسم الله مرة واحدة بل يقول إن الطبيعة تخلق كل شيء ولاحد لقدرتها على الخلق " إنه الفارق بين الهدى والضلال وهذا هو الفارق بين العلوم حين يشتغل بها المؤمنون. والعلوم حين يشتغل بها الماديون.

ونسجل أنه كلما تقدم علماء الإسلام فى الطب أو الفلك أو الجبر أو الهندسة كلما ازدادوا قرباً من الله. على عكس أرباب الحضارة الأوربية. كلما تقدموا فى العلم التجريبى إذا بهم يُعرضون عن الله. ويصل بهم الأمر أن يتحدوا الخالق سبحانه فى أسماء مخترعاتهم مثل تسمية بعض المخترعات بالمتحدى. أو الذى يستغنى بنفسه عن غيره.

---

(١) انظر شمس العرب تطح على الغرب ص ٢٤٣ ، ٢٤٦

(٢) نفسه ص ٢٦٦ / ٢٦٨

(٣) انظر للأهمية كتاب فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية ص ١٥٨ والكتاب حافل بما يعتز المسلم فى تقدم المسلمين فى علوم الطب . جزى الله مؤلفه الدكتور عامر النجار خير الجزاء على جهوده المتميزة فى هذا الشأن

إننا حين نذكر هذه النماذج نؤكد أن الإسلام هو الذى دفع هذه العقول للانطلاق للبحث والتجربة. وأنه كما يأمر أتباعه بالصلاة والزكاة وسائر فروض الإسلام يأمرهم بالبحث والنظر والتفكير والتدبر، وهذه الأمور كلها يعدها الإسلام عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله إذا أخلص عمله لله. وقصد بتلك الأعمال تحقيق الخلافة عن الله فى الأرض. واكتشاف سننه فى كونه

لأن العلوم الدينية والعلوم التجريبية ليستا متعارضتين حيث يعتقد البعض أن الأولى خاصة بالنواحي الروحية وبالآخرة، والثانية خاصة بالنواحى المادية وبالدنيا، وهذا وإن كان صحيحاً إلى حد ما إلا أن المعرفة أو العلوم الدينية تنصب على شئون الحياة فى الإسلام بنفس القدر الذى تنصب به على شأن الآخرة كما أن العلوم التجريبية فى الإسلام عون للإنسان المسلم على عبادة ربه وابتغاء الدار الآخرة بما يحصله منها من نتائج فليس ثمة علوم دينية ، وعلوم دنيوية [1] ولكن العلم وطلبه فريضة . ليست واجبة الأداء فحسب. ولكنها فى المصطلح الإسلامى عبادة ولنتأمل قول الله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[2]

فهل يستطيع المسلمون الآن تنفيذ هذه الآية بغير علم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والميكانيكا وعشرات غيرها من العلوم.؟[3]

ونقرأ قوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[4]

فنوقن أن الله يطلب من عباده المؤمنين أن يأخذوا بالقوة المتمثلة فى الحديد ـ لنصرة الله ورسله ـ وهذا ما نتمنى من المسلمين أن يقوموا به.

---

(١) الإسلام والعلم التجريبى ص ١٠٠ وانظر للضرورة، إحياء علوم الدين للغزالى ج ١ ص ١٦
(٢) سورة الأنفال الآية ٦٠
(٣) واقعنا المعاصر ص ٩٣
(٤) سورة الحديد الآية ٢٥

تعقيب ثان

الدين الحق الذى ينقذ البشرية هو الإسلام

بعد أن استعرضنا ما آلت إليه البشرية بعد سيطرة العلم التجريبى والإحباط الشديد الذى أحاط بالناس من جرّاء بُعدهم عن الدين. والصيحات العالية التى خرجت مدوية من هنا وهناك تعلن عجز العلم عن تفسير كثير من الأمور وتبين الحاجة إلى الدين نتساءل ـ أى دين ـ يحقق للإنسان المعاصر الطمأنينة والتوازن بين النفس والجسم بين الإنسان والكون وبينه وبين بنى جنسه من البشر بل بينه وبين الكائنات من حوله؟ هل الأديان الكتابية بما آلت إليه من تحريف، وتعصب ممقوت؟ كلا . لا شيء من هذا كله يصلح لكى يكون الدين الذى يحقق للبشرية أمنها واستقرارها فى يومها وغدها ومستقبلها إن الدين المختار من خالق البشر هو الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . كخاتم للأنبياء والرسل، وخاتم للرسالات والشرائع. وناسخ لها فى الوقت ذاته لأنه الدين الذى يحمل فى تعاليمه المتمثلة فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة ما يصلح الإنسان إلى أن تقوم الساعة، ولذلك حتماً ستعود البشرية إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم سواء بالدخول فيه والإيمان بأركانه أو بأخذ تعاليمه وتطبيقها فى مجتمعاتهم مصداقاً لقول الله تعالى ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1]

وليس كلامنا خالياً من الحقائق كلا بل إن الحقائق تؤكده والحجج تدعمه والبراهين تدلل عليه. ولنا عدة حقائق نقدمها كبرهان ودليل على أن الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنقذ للبشرية مما تردت إليه إن كان فيها من يأخذ بالعلم ويحتكم إلى العقل السليم ـ إما إذا أعرضوا ـ فهذا هو الاستكبار وهو الغى والضلال. هذه الحقائق تتمثل فى بعض آيات القرآن الكريم. يقول الله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟

---

(١) سورة الصف الآية ٩

ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١)

إن العالم فى أمس الحاجة إلى تصور صحيح للألوهية ولن تجد البشرية هذا التصور إلا فى كتاب الإسلام الوحيد الباقى بلا تحريف ولا تبديل القرآن الكريم ، وأيضاً السنة الصحيحة. وقد تضمنت هذه الآية النهى عن الإشراك بالله. وجاءت آيات أخرى لتتحدث عن الوحدانية التى يطلبها الإسلام من الخلق جميعاً.

وقد تحدثت هذه الآية الجامعة عن أسس ثلاثة :

الأساس الأول: ما يتعلق بعقيدة الفرد فحرم عليه الشرك بالله وهذا أول أساس ينبنى عليه صلاح العالم وسعادة البشرية.

الأساس الثانى : ما يتصل بسلوك الأفراد من الناحية الأخلاقية سواء ما يتعلق بذوى قرابته أو المجتمع الذى يعيش فيه.

الأساس الثالث : ما يتصل بالمعاملات بين الأفراد فى الدولة الواحدة أو بين الدول بعضها والبعض الآخر. من ناحية الوفاء بالعهو د وأدائها.

سوف نتكلم عن كل أساس من تلك الأسس بكلمة موجزة :.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥١ـ ١٥٣

أولاً: عقيدة التوحيد

في وسط هذا الكم الهائل من التيه والضياع في عالم الأفكار والمعتقدات. يظهر الإسلام كدين متفرد يدعو إلى التوحيد الخالص الذي جاء به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم، والذي يقول سبحانه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1]

ويقول عز وجل ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[2]

ويقول سبحانه ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[3]

هذه بعض الآيات التي يقرر فيها رب العالمين أن التوحيد هو دعوة الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم.

أما صاحب الدين الخاتم فإن دعوته من بدايتها إلى نهايتها كانت من أجل التوحيد.

يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[4]

ويقول تعالى ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[5]

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥
(٢) سورة الزخرف الآية ٤٥
(٣) سورة النحل الآية ٣٦
(٤) سورة البقرة الآية ٢١
(٥) سورة البقرة الآية ١٦٣ ـ ١٦٤

وهذه الآية تمثل مع غيرها من الآيات مثل قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾(١)

وقوله تعالى ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٢)

وقوله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾(٣)

أقول تمثل أسلوب الاستثناء التام المنفى وهذه الصيغة ترد كثيراً فيما يقرب من تسع وخمسين موضعاً تتحدث عن نفى كل ألوهية لغيره وتثبت الألوهية له وحده سبحانه وتعالى (٤)

أما السورة الفذة الفريدة التى تثبت لله الوحدانية وتنفى عنه الشريك وتنزهه عن الصاحبة والولد. فهى سورة الإخلاص يقول سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾(٥)

فقد نفت هذه السورة على قلة ألفاظها الكثرة والعدد، والقلة والنقص والعلة والمعلولية، والشبيه والنظير(٦)

وسورة الإخلاص لم يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضل سورة من القرآن مثلما صح فى فضلها وعليها اعتماد الأئمة فى التوحيد (٧) إن عقيدة التوحيد التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم تحرر الإنسان من أن يكون عبداً لآلهة هو الذى صنعها، وترتفع به من أن يكون عبداً لإنسان مثله. يحلل له أو يحرم عليه. وتنأى به عن أن يكون عبداً لحيوان أو جماد لا ينفع ولا يضر. وهى فى الوقت ذاته

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٢

(٣) انظر ما يعد به الإسلام ص ١٢٥ روجيه جارودى. وانظر ص ١٢٦/ ١٢٧

(٤) انظر الألوهية فى الفكر الإسلامى ص ١٢٦

(٥) سورة الإخلاص الآية ١ ـ ٤

(٦) انظر شرح البيجورى على الجوهرة ص ٦٩

(٧) توحيد الألوهية من مجموع الفتاوى ج ٢ ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩

(أى عقيدة التوحيد) ترد الأمر كله لله فالكون بما فيه ومن فيه ملك لله خالقه. فلا يُطلب الرزق إلا منه ولا الاستعانة إلا به ولا التوكل إلا عليه.

إن التوحيد هو الحرية فى أسمى معانيها. لأنه ينشئ فى القلب والعقل والضمير حالة من الانضباط والإلتزام. لا تتأرجح معها العقيدة، ولا تهتز معها القيم ولا يتميع فيها التصور والسلوك. ندرك هذا حين نوازن بين المسلم الذى يتعامل مع ربه الواحد الخالق الرازق القادر القاهر المدبر المتصرف وبين غيره من أرباب الديانات الوضعية [1] وأتباع المذاهب الفكرية. بل وأرباب الديانات الكتابية حيث أضحت هذه الديانات لا تلبى حاجات البشرية ويكفى القارئ أن يستعرض بعض أفكار الديانات الوضعية المعاصرة مثل الهندوسية أو البوذية ليرى كيف تختذل هذه الديانات كرامة الإنسان وتجعله يقدس البقرة ويحرم ذبحها، ويقدس الثعابين والتماسيح وغيرها ويعتبرون بعض الأنهار عندهم مقدساً وأن الانغماس فيها يطهر الذنوب [2] كما هو مقرر عند الهندوس أما البوذية فإنها يطلق عليها ديانة مجازاً لأنها تخلو من فكرة الألوهية أصلاً، وإن كان أتباع بوذا قد قدسوه فيما بعد فقد نحتوا التماثيل إعجاباً به، وتقديساً له. ثم دعاهم هذا الإعجاب له لمنحه صفات الألوهية واتخاذه إلهاً متجسداً [3] أما الأديان الكتابية مثل اليهودية فإن تصورهم للألوهية تصور مشوش بعد التحريف والتبديل الذى أدخله الأحبار على تعاليم موسى عليه السلام. ويمتلئ العهد القديم الذى بأيدى اليهود بأوصاف لا تليق بذات الله فهو يأكل ويشرب [4] ويعمل ويتعب ويستريح [5]، وينسى ويندم ويتردد وينطلى عليه الحيل [6] وأنه متردد [7] فهل من العقل والمنطق أن يتعبد الإنسان لإله هذه صفاته؟ هذا فضلاً عن التعصب اليهودى للجنس الإسرائيلى والنظرة باحتقار وتعالى لكل ما عداه.

---

(١) انظر خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ص ٢٢٧ / ٢٢٨

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ص ١٦٣

(٣) انظر الهند القديمة ص ١٥٢ وأديان الهند الكبرى ص ١٧٦ ـ ١٨٠

(٤) سفر التكوين ١٧ / ١ ـ ٣، ٨ / ١ ـ ٢

(٥) سفر الخروج ٢٠/٨ ـ ١١ وسفر التثنية ٥ ـ ١٢ / ١٥ والتكوين ٢ / ١ ـ ٢

(٦) سفر التكوين الإصحاح ٢٧

(٧) انظر سفر التكوين الإصحاح ٨

أما النصرانية فإن التثليث من العقائد الأساسية عندهم ويستدلون عليه بنصوص من الأناجيل [١] وأعمال الرسل وقد حاول النصارى البرهنة عليه بأدلة عقلية لا مجال لعرضها[٢]

وقد رفض كثير من علماء الغرب ما آلت إليه النصرانية من تحريف وتبديل خاصة فى مجال التثليث والصلب والفداء [٣]

لكل هذه الأمور وغيرها نستطيع أن نقول بدون تجاوز للحقيقة والواقع أن التوحيد هو الخاصية البارزة فى الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بحيث أنه لم يبق فى الأرض كلها تصور دينى صحيح إلا التصور الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. حيث حفظ الله أصوله فلم تمتد إليه يد التحريف ومن ثمَّ أصبح التوحيد خاصية من خصائص هذا الدين[٤]

ولا يقولن أحدٌ إذا كانت عقيدة التوحيد الخالص هى الباقية فى الدين الإسلامى الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دون غيره من الأديان الموجودة الآن: فما شأن الذين ينتسبون إلى الإسلام اليوم فى ذيل الأمم؟ ونبادر فنقول فرق بين المبدأ والتطبيق للمبدأ. فالمبدأ حق فى ذاته يؤتى ثماره لمن يأخذ به ويعمل بتوجيهاته، ولأن سنن الله لا تحابى أحداً. فحين انحرف المسلمون عن العقيدة الصافية واتبعوا سنن من قبلهم نزع الله منهم القيادة والريادة. ومن ثمَّ فإن الوضع الذى يعيشه المسلمون الآن دليل على أن الإسلام هو الحق وأن التمسك به هو طوق النجاة والسعادة فى الدنيا والآخرة. أما حين تخلى المسلمون عن عقيدتهم وشريعتهم فإن الهوان وتكالب الأمم عليهم هو النتيجة الحتمية واللازمة لسلوكهم. وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾

---

(١) انظر إنجيل متى ٢٨ / ١٩ ويوحنا ١ /١

(٢) انظر التثليث والتوحيد للأنبا غريغريوس وانظر الدر الثمين فى إيضاح الدين ص ١٠ /١١

(٣) انظر على سبيل المثال المسيحية نشأتها وتطورها فالكتاب من بدايته إلى نهايته تصوير دقيق لدخول الوثنية إلى النصرانية وسيطرتها فيما بعد بدلاً من تعاليم المسيح عليه السلام والحواريون انظر بحثنا. نقض دعوى عالمية النصرانية. المبحث الخاص بدخول الوثنية إلى النصرانية

(٤) خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ص ٢١٢ / ٢١٣

ولذلك نقرر أن أصحاب عقيدة التوحيد حين يفيئون إلى منهج الله الذى منَّ به عليهم، وينادون به يملكون أن يقدموا للبشرية الشئ الكثير. الذى تفتقده جميع المناهج والأنظمة والأوضاع فى الأرض كلها بلا استثناء ومن ثمَّ يكون لهم اليوم وغداً دور جديد في عالم اليوم يتمثل فى القيادة الراشدة للتيارات العالمية الإنسانية ويمنحهم سبباً وجيهاً للوجود العالمى الإنسانى كالدور الذى مُنح للعرب الأميين فى الجزيرة العربية يوم أن تمسكوا بالإسلام.

إن أصحاب عقيدة التوحيد لا يملكون أن يقدموا للبشرية أمجاداً علمية ولا فتوحات حضارية تبلغ من ضخامتها أن تتفوق تفوقاً ساحقاً على كل ما لدى البشرية منها، ولكنهم يملكون أن يقدموا للبشرية شيئاً آخر أعظم من كل الأمجاد العلمية، والفتوحات الحضارية إنهم يقدمون تحرير الإنسان بمنهج يقوم على تكريم الإنسان وعلى إطلاق يده وعقله وضميره وروحه من كل عبودية لما سوى الله ويوم أن يفعل ذلك أصحاب عقيدة التوحيد سوف تنطلق كل الطاقات لتحقيق الخلافة عن الله فى أرضه بعزة وكرامة كما أراد الخالق للإنسان أن يكون. وحين يتم ذلك من الممكن حينئذ أن يقدم الإنسان المحرر من العبودية لغير الله. الأمجاد العلمية، والفتوحات الحضارية. ليستخدمها فى طاعة الله ويسخرها فى عبادته. فلا يكون عبداً للآلة ولا عبداً للبشر على السواء[1] إن على البشرية اليوم كما تجد للحصول على الطعام والشراب وضرورات الحياة وكمالياتها. أن تجد للبحث عن الدين الحق الذى يقدم التصور الصحيح عن الله ورسله وعالم الغيب كله. الدين الذى يقدم المنهج الصالح للحياة بحيث تتوازن متطلبات الروح مع ضرورات الجسد الدين الوسط الذى لا يهمل جانباً على حساب جانب آخر بل الكل يأخذ حقه بحساب دقيق وميزان عادل ولن تجد البشرية ذلك إلا فى الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ص ٢٣٤

ثانياً: الجانب الأخلاقى:

هذا الجانب يأتى بعد التوحيد مباشرة وهو منبثق؛ عنه لأن الذى يوحد الله ويعرفه حق المعرفة تظهر آثار الوحدانية على سلوكه مع ذوى قرابته وبين سائر أفراد المجتمع الذى يعيش فيه .

لقد أوصى الله الإنسان بالإحسان إلى الوالدين. والناظر فيما وصل إليه حال المجتمع المعاصر. من ناحية الجفاء والعقوق الذى أصبح سمة للإنسان المعاصر . يجد أن الإسلام يأتى ليعيد التوازن إلى البشرية برده إلى الإحسان لمن كان سبباً فى وجوده. إن الذى يشاهد الآباء والأمهات الذين يعيشون بلا عائل ولا موئل مما يثير الأسى. يدرك نداء القرآن ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ كتعليم أخلاقى رفيع فى وسط هذا الكم الهائل من الماديات ـ إنه يقول للإنسان إن عليك واجبات وتكاليف تجاه الوالدين ـ وكلمة الإحسان كلمة ندية رطبة تبدد جفاء الحضارة المعاصرة. وهى تعنى إعطاء أكثر فى مقابل أقل. أو فى غير مقابل أصلاً ، وهو تعبير عن إنسانية الإنسان [1] كما ينبغى أن يكون الإنسان.

وتضمنت آية سورة الأنعام النهى عن قتل الأولاد. أياً كان السبب أما التعليل بخشية الفقر فقد صرح به القرآن لأنه كان العلة الشائعة لدى العرب وقت مجئ الإسلام وليس لأن النهى مرتبط به وحده وإلا فتجنب قتل الأولاد مطلوب على الإطلاق بعموم قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [2]

وهذه الآيات كما خاطبت القدامى تخاطب المعاصرين الآن ـ الذين يعملون على إبادة الجنس البشرى بتحديد النسل خشية الفقر أو حرصاً على عدم تحمل المسئولية تجاه الأسرة ـ وحجتهم الاستمتاع بالحياة وهذا شائع الآن فى الغرب. وقد تسربت بعض هذه الأفكار للأسف الشديد إلى المجتمع الإسلامى.

---

(١) الفكر الإسلامى فى المجتمع المعاصر ص ٤١٦

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١ وانظر الفكر الإسلامى الحديث ص ٢٥٤ / ٢٥٥

ثم تأتى التوجيهات القرآنية بتجنب اقتراف الفواحش ظاهرها وباطنها خفيها وظاهرها. إن العالم الآن يئن من الفواحش وهى نذير بطش وفتك عن طريق الأمراض التى تخلفها تلك الفواحش فضلاً عن عقاب الله. وللأسف الشديد تظهر العلل وتنتشر الأمراض وبدلاً من النهى عن اقتراف الفواحش نرى سدنة النظام العالمى الجديد يوصون رعاياهم بأخذ الاحتياطات اللازمة. يأتى نداء القرآن الكريم للبشرية كطوق للنجاة من الغرق المحتم. ولكن هل من مجيب ؟ وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ (١)

ثم تضيف الآية النهى عن قتل النفس بغير حق. والنهى هنا لا يتناول الأفراد فحسب بل يتناول الدول والمجتمعات. ويأتى التأكيد بعد النهى عن القتل ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

من الذى يحقق السلام والأمن للأفراد والمجتمعات سوى الإسلام كلمة الله الأخيرة لمحمد صلى الله عليه وسلم لدعوة الناس كافة.

ماذا فعل العالم المتحضر الذى تسوده الديانات الكتابية أو الديانات الوضعية مع المجاذر البشرية، ومع التفجيرات النووية ومع التجويع حتى الموت؟ إن عالم اليوم يملك ما يوازى مليون قنبلة من مثل قنبلة هيروشيما(أى ما يعادل خمسة أطنان من المتفجرات التقليدية على رأس كل مواطن. على هذا الكوكب (٣) يأتى النداء القرآنى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ليبدد ذلك الخطر الداهم الذى يهدد البشرية من جانب ثلة لا عقل لها ولا دين ولا قلب. وإن كانت تلك الآلات موجودة فى أجسادهم إلا أنهم عطلوها عن العمل من أجل أمجاد زائفة. وهذا شأن الغرب المعاصر ـ صاحب التكنولوجيا والأقمار الصناعية.

---

(١) سورة القمر الآية ٣٦

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١

(٣) ما يعد به الإسلام روجيه جارودى ١١٥

ثالثاً: ما يتعلق بالمعاملات بين الأفراد والأمم.

إن آية سورة الأنعام وغيرها من الآيات تأمر بعدم مساس مال اليتيم وهو ذلك الضعيف فى صورة من صور الضعف الإنسانى. إنه ذلك اليتيم المنتشر فى أرجاء العالم. يتسول وتستغله عصابات الإجرام ويُتاجر بأعضائه البشرية لصالح الأقوياء. لا أحد يأخذ له شقه سوى الإسلام.

وتأمر الآية أيضاً. بالوفاء فى الكيل والميزان: أى بتحقيق التعادل فى التبادل بين الناس. إنها تبدد الظلم والجور والاستغلال الذى يمارس من الدول الغنية المصدرة للدول الفقيرة المستوردة. الذى يفضى إلى أبشع صور الظلم انتشاراً ـ حين تسلب الموارد لصالح مجموعة قليلة من البشر ـ ضد الغالبية العظمى من العالم [1]

أما قوله تعالى (وإذا قلتم فاعدلوا) يا لهذا القرآن من شفاء للناس. إن الآية تأمر بالقضاء بالعدل والتمسك به مهما كانت عوامل الضغط على الانصراف عنه ولك أيها القارئ أن ترى نموذج الحيف والجور والظلم والعدوان ظاهراً للعيان فى أى مشكلة يكون الطرف فيها المسلمون، وما قضية " فلسطين " أو البوسنة " أو " كسوفا " أو " كشمير " أو الشيشان عنا ببعيد فى الكيل بعدة مكاييل فى الأمر الواحد ـ وها هى قرارات الأمم المتحدة تطبق على البعض بكل صرامة وتشدد ـ وتغفل تماماً وكأنها لم تكن عند البعض الآخر.

والمثال على ذلك إسرائيل وغيرها من دول العالم الإسلامى.

يأتى القرآن للعالم كله أمراً ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[2] أياً كانت القرابة والمصلحة ومهما ترتبت عليها . أين نجد هذه التعاليم وعند من تطبق؟ إنها لا توجد إلا فى الإسلام ولا تطبق إلا عند المتمسكين به.

ثم يأتى الأمر بالوفاء بالعهد والالتزام به. بشرط أن يكون ذلك العهد على الخير وبالمعروف أما إذا كان على الشر أو المنكر. فهو وعد مهدر وعهد باطل.

---

(١) انظر ما يعد به الإسلام ص ١١٣ / ١١٤

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٢

يقول أستاذنا الدكتور البهى فى تعليقه على آية سورة الأنعام: فهذه الآية وحدها لم تقف بالإسلام عند حد الدين كما يراه الغربيون وهو الذى يعنى العقيدة فى الإله. ولم تقف عند حد الوصايا الأخلاقية الفردية فقط بل تجاوزت هذين الجانبين إلى جانب التعامل فى دائرة الأموال. والتبادل التجارى، وفى دائرة القضاء، وفى دائرة الوفاء بالعهد والالتزام به. والآية فوق أنها تحدد العقيدة والوصايا الخلقية الفردية تقرر مبدأ التعامل ومبدأ القضاء، ومبدأ الدولة نفسها وصلتها بالأفراد.[1]

وماذا يحتاج العالم الآن أكثر من هذا؟ إن البشرية لا مناص سوف تعود إلى الدين الذى يحقق السعادة والطمأنينة لها ليس فى الدنيا فقط وإنما يحقق الأهم وهو الأمن فى الحياة الآتية.

إنه وكما يقول الدكتور "رشدى فكار" إن الإسلام لن يقول لأبناء القرن الحادى والعشرين سأعطيكم طائرة أسرع أو سيارة أفضل أو قطاراً أكثر راحة ورفاهية أو ثلاجة أجمل وأكبر أو طرقاً أنعم وأنظف لا ولكن سيقول لهم: سأعطيكم إنساناً أكثر توازناً واعتدالاً أكثر براً وإحساناً وعدالة للآخرين إنساناً يرتبط بمبادئه ويهاب ويخشى خالقه. الإنسان الذى يخدم الإنسان ويعمل لإسعاده لا لارتقاء ناطحات السحاب ورصف الشوارع، واستنزاف كل الخيرات فى إطار التحايل والمكر والدهاء والكيد وبمعنى آخر صياغة وبناء الإنسان ليبنى كل ما دمر "[2] نعم إن هذا أعظم ما يقدمه الإسلام للبشرية بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه الحضارة المادية المعاصرة، وفضلاً عن ذلك كله يقدم الإسلام الحضارة فى ثوب جديد يخترع فيه الإنسان ويبتكر ويستخرج الخيرات. وهو مع ذلك عبد لله لايتعالى ولا يغتر وهذا فرق كبير وبون شاسع بين الحضارة حين يملكها غير المؤمن والحضارة حين يملكها المؤمن.

إن البشرية فى أمس الحاجة إلى الإسلام فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الإنسان. الضمير فى حاجة إلى الاسترواح والثقة والاطمئنان، والعقل الإنسانى يحتاج إلى الانطلاق والنشاط للنفع لا للضرر للإصلاح لا للإفساد.

---

(١) انظر الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٥٥ / ٢٥٦

(٢) حوار متواصل ص ٥٤ د / رشدى فكار نقلاً عن الصحوة الإسلامية فى عيون مختلفة ص ٨٩/ ٩٠ د / نعمان السامرائى الناشر دار المنارة.

والأسرة فى حاجة إلى الحماية والرعاية ولم الشمل والتكافل.

والبشرية بأسرها فى حاجة إلى التعاون لا التفرق والتعارف لا التشاجر، والسلام لا الحرب.

إن شجرة الحضارة البشرية تهتز وتترنح اليوم كما كانت تهتز وتترنح قبيل مولد محمد صلى الله عليه وسلم. الرسول الذى وحد العالم جميعه فما أشد حاجة البشرية إلى رسالة هذا الرجل لتنقذها مرة أخرى [1] إن ذلك واقع لا محالة وآت لا ريب فيه ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

---

(١) نحو مجتمع إسلامى ص ١٢/ ١٣

أهم المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم

البيجورى

إبراهيم البيجورى

٢ـ " تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد " الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية.

أحمد امين.

٣ـ " فجر الإسلام " . مكتبة النهضة. الطبعة الحادية عشرة.

أرنولد ، السير توماس.

٤ـ " تاريخ الدعوة إلى الإسلام " مكتبة النهضة المصرية.

الأشقر ،

د / عمر سليمان الأشقر.

٥ـ " العقيدة فى الله ". دار النفائس.

الألوسى ،

محمد شكرى الألوسى.

٦ـ " روح المعانى ". دار الطباعة المنيرية.

بدوى ،

د/ عبد الرحمن بدوى.

٧ـ " موسوعة الفلسفة ". المؤسسة العربية للطباعة والنشر.

د/ بركات دويدار.

٨ ـ " الوحدانية ". مكتبة النهضة المصرية.

البستانى ،

المعلم بطرس البستانى.

٩- " محيط المحيط". مكتبة لبنان ١٩٧٣م.
١٠- " مختصر تفسير البغوى " للدكتور عبد الله الزيد. مكتبة المعارف للنشر.

أبو البقاء،

أيوب بن موسى والكفوى.

١١- " الكليات " نشر وزارة الثقافة. دمشق ١٩٧٥م.

البهى،

د/ محمد البهى.

١٢- الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى". مكتبة وهبة.
١٣- الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر".

البيرونى.

١٤- " تحقيق ما للهند من مقولة". عالم الكتب ١٩٨٣م.

بيصار،

الدكتور محمد بيصار.

١٥- " العقيدة والأخلاق ". مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣م

البضاوى.

١٦- " تفسير البيضاوى".

التفتازانى،

سعد الدين بن عمر التفتازانى.

١٧- " مقاصد الطالبين فى علم أصول الدين " . دار الطباعة العامرة.

التهانوى،

محمد على الفاروقى التهانوى.

١٨- " كشاف اصطلاحات الفنون " تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع.

ابن تيمية.

١٩- " الإيمان ضمن مجموع الفتاوى ". الناشر دار الفكر

جارودى،

روجيه جارودى.

٢٠- " ما يعد به الإسلام " ترجمة قصى أتاسى. مراجعة محمد البحاوى.

محمد كمال جعفر.

٢١ـ " فى الدين المقارن ". دار الكتب الجامعية.

د/ جواد على

٢٢ـ المفصل فى تاريخ العرب". دار العلم للملايين.

جورج هدلى.

٢٣ـ " الدين .. مادة ورمزاً ". ضمن آفاق المعرفة. ترجمة فؤاد جميل.

مؤسسة فرانكلين للطباعة.

ابن حزم.

٢٤ـ " الفصل فى الملل والأهواء والنحل ". مكتبة السلام العالمية. القاهرة

خان ،

وحيد الدين خان.

٢٥ـ " الإسلام يتحدى ". دار المختار الإسلامى.

الخطيب ،

الأستاذ / عبد الكريم الخطيب.

٢٦ـ " الله . ذاتاً وموضوعاً " . دار الفكر العربى.

٢٧ـ دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من المستشرقين. ترجمة أحمد الشناوى وآخرون. الناشر دار الفكر العربى.

أبو داود.

٢٨ـ " سنن أبى داود " شرح الحافظ بن قيم الجوزية. الناشر المكتبة السلفية.

دراز ،

الدكتور/ محمد عبد الله دراز

٢٩ـ " الدين " دار القلم. الكويت.

الرازى ،

الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى

٣٠ـ التفسير الكبير ".

رشيد رضا.

٣١ـ " تفسير المنار ". دار المعرفة للطباعة و النشر.

الزمخشرى ،

أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى.

٣٢ـ " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل". طبعة الحلبى ١٩٧١م.

الزندانى ،

الشيخ / عبد المجيد الزندانى.

٣٣ـ " توحيد الخالق".

السامرائى ،

د/ نعمان السامرائى.

٣٤ـ " الصحوة الإسلامية فى عيون مختلفة ". الناشر دار جدة ١٩٩٣م.

السحيبانى ،

الشيخ / محمد بن ناصر السحيبانى.

٣٥ـ " منهج الشهر ستانى فى كتابه الملل والنحل ". دار الوطن. الرياض.

أبو السعود

٣٦ـ "تفسير أبو السعود".

سيد قطب .

٣٧ـ فى ظلال القرآن. دار الشروق.

٣٨ـ " فى النفس والمجتمع " دار الشروق.

٣٩ـ " خصائص التصور الإسلامى ومقوماته ". دار الشروق .

الشاذلى ،

الدكتور / عبد الله يوسف الشاذلى.

٤٠ـ " الحكمة العربية فى أصالتها الفطرية ". الدار القومية.

٤٠ـ المنهاج القرآنى". الدار القومية.

٤١ـ" الألوهية فى الفكر الإسلامى ". الدار القومية

الأستاذ / محمود شاكر.

٤٣ـ " أباطيل وأسمار " مطبعة المدنى. الطبعة الثانية.

ابن الشريف،

الدكتور / محمود بن الشريف.

٤٤ـ " الأديان فى القرآن " دار المعارف الطبعة الثالثة ١٩٦٣م.

الشهر ستانى.

" الملل والنحل " دار الفكر . بيروت.

" نهاية الأقدام".

صبحى،

د/ نبيل صبحى.

٤٥ـ " الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين ". كتاب الأمة ١٤٠٤هـ

الصنعانى.

٤٦ـ " سبل السلام " نشر جامعة الإمام ١٩٨٤م.

الطبرى،

أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى.

٤٧ـ" تفسير الطبرى" تحقيق أحمد ومحمود شاكر. دار المعارف.

د/ عامر النجار.

٤٨ـ" فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية". دار المعارف. الطبعة الثالثة ١٩٩٤م

الإمام الأكبر الدكتور / عبد الحليم محمود.

٤٩ـ" الإسلام والإيمان ".دار الكتب الحديثة.

عبد الرازق،

الإمام الأكبر الشيخ / مصطفى عبد الرازق.

٥٠ـ " الدين والوحى والإسلام " دار القادرى لبنان.

الدكتور / عوض الله حجازى.

٥١ـ " مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام". دار الطباعة المحمدية.

الأستاذ / حمدى عبيد.

٥٢ـ " معجم المصطلحات ". ملحق بالموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب.

نشر الندوة العالمية للشباب الإسلامى. الرياض ١٩٩٨م

ابن أبى العز.

٥٣ ؟ـ " شرح الطحاوية " تحقيق د/ عبد الله التركى ، شعيب الأرناؤوط . مؤسسة الرسالة.

العسقلانى ،

الإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلانى.

٥٤ ـ " فتح البارى شرح صحيح البخارى" دار الريان للتراث.

العسكرى ،

أبو هلال العسكرى.

٥٥ ـ " الفروق فى اللغة ". دار الآفاق. بيروت ١٩٧٣م

ابن عطية.

٥٦ ـ " المحرّر الوجيز فى تفسير كتاب العزيز " تحقيق أحمد صادق الملاح.

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٤م.

العقاد ،

الأستاذ / عباس محمود العقاد.

٧٥ـ " الله ..كتاب فى نشأة العقيدة الدينية " دار العلم للملايين.

د/ علم الدين كمال.

٥٨ ـ " تطور الكائنات الحية " مجلة عالم الفكر . المجلد الثالث. العدد الرابع ١٩٧٣ م. الكويت.

عمارة ،

الدكتور / محمد عمارة.

٥٩ ـ " الإسلام والسياسة " نشر مجمع البحوث الإسلامية.

د/ عمارة نجيب.

٦٠ ـ " الإنسان فى ظل الأديان ". مكتبة المعارف . الرياض.

الغزالى،

الإمام أبى حامد الغزالى.

٦١ ـ " الاقتصاد فى الاعتقاد ". مكتبة الجندى.

القاسمى،

محمد جمال الدين القاسمى

٦٢ ـ " محاسن التأويل " دار الفكر.

القرطبى،

الإمام شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن بكر فرح الإنصارى.

٦٣ ـ " تفسير الجامع لأحكام القرآن".

قطب،

محمد قطب.

٦٤ ـ " مذاهب فكرية معاصرة " . دار الشروق.

٦٥ ـ " معركة التقاليد ". دار الشروق.

٦٦ ـ " التطور والثبات ". دار الشروق

٦٧ ـ " دراسات فى النفس الإنسانية " دار الشروق.

٦٨ ـ " واقعنا المعاصر ". دار الشروق.

ابن فارس.

٦٩ ـ " معجم مقاييس اللغة " ، تحقيق عبد السلام هارون.

د/ فاروق الدسوقى.

٧٠ ـ " الإسلام والعلم التجريبى ". المكتب الإسلامى . بيروت.

د/ فرج الله عبد البارى.

٧١ ـ " اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام ". دار الوفاء . الطبعة الثانية.

الفيروز أبادى.

٧٢ ـ " القاموس المحيط " المطبعة الميمنية بمصر.

ابن كثير،

الحافظ بن كثير الدمشقى.

٧٣ ـ " تفسير القرآن العظيم ".

المراغى،

الشيخ مصطفى المراغى.

٧٤ ـ " تفسير المراغى ".طبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٦٩م.

المصرى،

الأستاذ عبد الرؤوف المصرى.

٧٥ ـ " معجم القرآن " مطبعة حجازى ١٩٤٨م.

د / مصطفى حلمى.

٧٦ ـ " الإسلام والأديان ". الطبعة الأولى ١٩٩٠ م. دار الدعوة . الأسكندرية .

مظهر،

سليمان مظهر.

٧٧ ـ " قصة الديانات".

ملص،

محمد بسام الملص.

٧٨ ـ " النهضة الأوربية " . دراسة نقدية نشر جامعة الإمام ١٩٩٢م

ابن منظور،

جمال الدين بن منظور.

٧٩ ـ " لسان العرب ". دار المعارف.

المنوفى،

الأستاذ / محمود أبو الفيض المنوفى.

٨٠ ـ " الدين والفلسفة والعلم " . دار الكتب الحديثة

النشار،

الدكتور / على سامى النشار.

٨٠ ـ " نشأة الدين " دار نشر الثقافة بالإسكندرية ١٩٤٩م.

النووى.

٨٢ ـ " مسلم بشرح النووى ". المطبعة العربية ومكتبتها القاهرة

د/ محمد خليل هراس.

٨٣ ـ " دعوة التوحيد " . نشر دار الصحابة . طنطا.

ابن هشام،

أبى محمد عبد الملك بن هشام.

٨٤ـ " السيرة النبوية " تحقيق الدكتور / محمد فهمى السرجانى. المكتبة التوفيقية.

٨٥ـ " المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى".

الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل

٨٦ـ " الإسلام والاتجاهات العلمية ". دار المعارف.

٨٧ـ " مداخل للعقيدة الإسلامية ". مطبعة التقدم . طنطا ١٩٨٥م.

٨٨ـ " فى مواجهة الإلحاد المعاصر ". الناشر مجمع البحوث الإسلامية.

الأستاذ / يوسف كرم.

٨٩ـ " تاريخ الفلسفة الحديثة. دار المعارف.

هناك بعض المصادر والدوريات اكتفينا بإيرادها فى الهامش.

تعريف بالمؤلف

أ.د / فرج الله عبد البارى أبو عطا الله.

- ولد فى دقادوس ـ ميت غمر ـ دقهلية فى ١٣/٥/١٩٥٩ م.
- تلقى تعليمه فى الأزهر الشريف منذ السنة الأولى الابتدائية حتى حصل على الليسانس فى أصول الدين والدعوة الإسلامية عام ١٩٨١م بمرتبة الشرف.
- عين معيدًا فى قسم الماجستير فى العقيدة والفلسفة بتقدير ممتاز عام ١٩٨٧م فى موضوع اليوم اللآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام.
- صدر قرار تعيينه مدرسا مساعدا فى قسم العقيدة والفلسفة عام ١٩٨٧.
- حصل على العالمية الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٩٠م فى موضوع موقف القرآن الكريم من الفكر المادى.
- صدر قرار تعيينه مدرسا بقسم العقيدة والفلسفة فى ٣/١٠/١٩٩٠ م،
- رُقى إلى درجة استاذ مساعد فى قسم العقيدة والفلسفة فى ٤/١/١٩٩٥ م.
- أُعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بكلية أصول الدين بالرياض قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة اعتبارًا من ٢٦/١٠/١٩٩٣ م إلى ٢١/٨/١٩٩٩ م.
- اختير فى فترة إعارة ضمن أحد عشرة أساتذة حققوا سبق الإنجاز والجدية فى الإرشاد الطلابى والبحث العلمى فى كلية أصول الدين بالرياض.
- رُقى إلى رئيس قسم العقيدة والفلسفة فى ٢٠٠٤ .

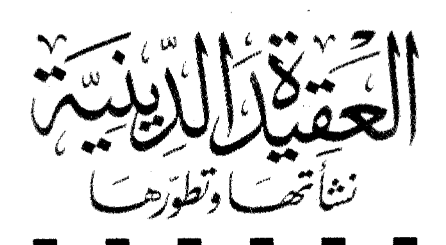
سافر إلى كل من تركيا وسوريا لزيارة دور الكتب فيها وتصوير بعض المخطوطات، وزيارة كلية بمرمرة باستانبول . وزار المراكز الإسلامية فى أوربا وأمريكا.

- يقوم بخطبة الجمعة فى مساجد الأوقاف والجمعيات الأهلية منذ سنة ١٩٧٩م.

المؤلفات العلمية:

١ـ اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام طبعة ثانية دار الوفاء.
٢ ـ موقف القرآن الكريم من الفكر المادى ـ رسالة دكتوراه (مخطوطة).
٣ ـ النزعة الإلحادية فى النظريات العلمية ـ بحث نُشر فى حولية أصول الدين عام ١٩٩١ م.
٤ ـ الاختراق اليهودى للمجمعات الإسلامية نشأته وتطوره طبعة ثانية عام ٢٠٠٠ م.
٥ ـ التصور اليهودى للمسيح وعلاقته بالتقارب المسيحى اليهودى المعاصر طبعة ثانية عام ٢٠٠١ م.
٦ ـ نقض دعوى عالمية النصرانية مترجم الى الإنجليزية عام ٢٠٠١ م.
٧ ـ عالم الملائكة ـ دراسة عقدية كتاب. عام ١٩٩٨ م.
٨ ـ العلمانية النسبة الدلالة ـ الدوافع . بحث عام ١٩٩٩ م حولية أصول الدين.
٩ ـ العقيدة الدينية ونشأتها بين التوحيد والتطور ـ كتاب عام ٢٠٠٠ م.
١٠ ـ العقائد الدينية عند الأمم الوثنية كتاب ـ عام ٢٠٠٠ م.
١١ ـ الديمقراطية رؤية إسلامية بحث ـ مقدم إلى الندوة العلمية للشباب الإسلامي فى عمان ـ الأردن عام ١٩٩٨ م.
١٢ ـ بحث عن المادية منشور فى موسوعة المذاهب المعاصرة دار إشبيلية الرياض عام ١٩٩٧ م.
١٣ ـ الاستنساخ ـ بحث مقدم لإلى اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر عام ٢٠٠٠ م.
١٤ ـ اليهودية بين الوحى الإلهي والانحراف البشرى دار الآفاق العربية عام ٢٠٠٤ م.
١٥ ـ العقيدة الإسلامية فى مواجهة التيارات الإلحادية ـ دار الآفاق العربية عام ٢٠٠٤ م.
١٦ ـ مناهج البحث العلمى وآداب الحوار والمناظرة ـ دار الآفاق العربية عام ٢٠٠٤ م.

فهرست الموضوعات



يتحدث عن موضوع حيوى بالنسبة للانسان – اذ يبحث موضوع الدين والتدين – ما هو مصدر الدين وبواعث التدين فى نظر علماء الغرب الذين عرض المؤلف نظرياتهم –ونقد بعضهم لبعض ووقف المؤلف بوجة خاص مع القائلين بالتطور فى العقيدة سواء من الغربيين أو من تأثر بهم من الباحثين المسلمين ، وبين المؤلف الخطأ المنهجى الذى وقع فية هؤلاء . وانتهى الكتاب الى تقرير حقيقة مصدر الدين وبواعث التدين من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية وأنهما المصدران الوحيدان اللذان يؤخذ منهما الحديث عن نشأة الدين وبواعث التدين .

وناقش المؤلف أرباب الفكر الوضعى الذين يجعلون العلم بديلا عن الدين – وبين أنة لابد من الدين الحق مع العلم لكى تنقذ البشرية .

كما تردت الية ، وأن الدين الحق هو الاسلام بما احتوى علية من تعاليم متسقة مع الفطرة من ناحية والعلم من جهة أخرى .

كل هذة المباحث خاض فيها المؤلف – بفهم الباحث المدقق الذى مكث قرابة ربع قرن يبحث فى العقائد والاديان والاتجاهات الفكرية مع خبرة علمية فى الحوار والمناظرة من خلال مشاركاتة العلمية فى اكثر من دولة عربية واوربية وامريكية - الأمر الذى جعل الكتاب واحة فكرية يجد فيها القارىء فيها ضالتة – فى موضوع حيوى مثل نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور .

I.S.B.N. 977 - 344 - 121 -